رواية

النسيم

أزمِنة الصرماتي

عمر الصايم

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

صديقي أ. عمر عبدالله
بكل المحبة والامتنان
ولأجل المعرفة
أهديك أزمنة الصرماتي
وأزمنتنا القادمة
[illegible]
القاهرة ١٣ / أبريل
والتواريخ الأجمل.

أَزْمِنة الصرماتي

رواية

Scanned by CamScanner

أزمنة الصرماتي
رواية
عمر الصايم

الطبعة الأولى: 2019
رقم الإيداع: 2019/8368
ISBN: 978-977-802-139-4

دار النسيم للنشر والتوزيع- القاهرة
ت: 01006229487
e mail: daralnassim@yahoo.com
دار النسيم للنشر والتوزيع

المدير العام: **أشرف عويس**
إشراف فني: **د. هند سمير**

Scanned by CamScanner

أزمنة الصرماتي

رواية

عمر الصايم

Scanned by CamScanner

إهداء

إلى شهيدٍ سأظل أذكره.. كلما سقى عطر الأرض براعم النور
وآخرين على الرصيف أحبهم.

Scanned by CamScanner

بزوغ متأخر

استلمتْ فمَهُ كحذاءٍ قديم، وهي تتأمله للمرة الأولى شعرتْ أنَّ مهمتها ستمتد لقرنٍ قادم، وأنَّها ذات صلة بعلم الآثار؛ كيف ستعيد لهذه المومياء المتحركة رصَّة الأسنان الباسمة؟ وهل ستتمكن مِن إزاحة الخريطة الكنتورية مِن حول فمه؟ استدعتْ كل ما درسته عن طب الأسنان، اقتحمتْ الإنترنت؛ لتراسل أساتذتها في أوروبا. ستفعل كل ما يجدر بها لتعيد الفم الحذاء إلى وضعه البشريّ؛ لتضع يدها على ابن الصرماتي المتعجرف، ستهديه والدًا جديدًا، ربما تتمكن مِن حيازة قلبه في آخر العمر. في كل اللقاءات السابقة بينهما لا ينظر إلى عينيها، وفتحة الصدر المُشْرَعة بدقة حول نهديها. يبدو كريبورت يابانيّ في بيئة فقيرة، ستصطاده مِن هنا، سيدرك أنَّها ما فعلتْ ذلك إلا لتبرهن له على إنسانيتها، وأنَّها تستطيع أنْ تعتني بشبابه في شيخوخته التي تخفيها الآن الأصباغ والمساحيق، شيخوخته التي ستحدث لا محالة كطفرة جينية، ساعتها سيجدها حائطًا يستند عليه.

يحاول الصرماتي أنْ يتكهن بما يدور في عقلها، حينما يدركه الإعياء يتكئ على كرسيها كما كان يتوسد ساعده في رمل المسيد، طفلاً صغيرًا يعد النجيمات فاغرًا فمه النضيد. يتذكر انفتاح السماء أمام عينيه بزرقتها الدكناء، والتماع برقها في فجاجها كأنَّمَا يُقَسِّمُها إلى أنصبة للناظرين، نصيبه مِن السماء مليء بالتعاويذ، ودعوات الأسلاف. في كرسيها تختفي السماء أعلى سقف ناصع البياض، كُلُّ شيءٍ هنا أبيض

Scanned by CamScanner

إلا ثياب الطبيبة تبدو كمهرجان مِن الألوان لقبيلةٍ بدائية، ظلَّتْ تحشر ألوانها في أصقاع فمه، تجوس بفرشاتها في بقايا لثته، لم يكن يشعر بالألم مطلقًا، تسري روح التخلُّق في جسده العتيق، تنشط الخلايا لمعالجة تجاعيد قرنٍ مِن الحزن، والفرح الخاطف. في جلساته المتكررة وكلما تقدَّمتْ خطوات استنبات أسنانه تنبتُ أنسجةٌ جديدة على جلده، ويندلق الدم في خبايا جسده.

خلال ثلاثة أشهر لاحظتْ الطبيبة أنَّه بدأ يستعيد الكثير مِن شبابه المنصرم، انفرجتْ أسارير عينيه، وتلاشى انكماش جفنيه. يغمض جفنيه ويرسل ابتسامة مائلة للشق الأيمن مِن وجهه، تبرز معها غمَّازة غائرة انهالتْ عليها حِزْمَة مِن التجاعيد العشوائية، أربكتْها تحولات المُسِن. شعرتْ أنَّ يدًا خفيَّة تُعَالج معها، وقفزتْ إلى ذهنها الحكايات التي سمعتْها عن ميلاده وحياته العريضة، التي أنفقها في إعادة الحياة للأحذية ومحاربة شيخوختها واندثارها. مرَّتْ بخاطرها صورة ابنه عاطف، لم يأخذ غمَّازة أبيه، ولا عينيه الملتمعتين، يبدو متجهمًا، أو مبتسمًا كَدُمْيَةٍ بلاستيكية.. ولكنها يجب أنْ تتزوجه على كُلٍّ، ثراؤه ونفوذه يرغمان أية طبيبة طامحة على التزلف له.

في المرات القليلة التي يفتح فيها الصرماتي عينيه تبهره ألوان ثيابها، ومساحيق وجهها؛ يغلقهما في حياء، تظهر له على جدار جفنه الداخلي عارية مِن الألوان. بشرتها سمراء، مشدودة كحذاء لم تدخله قدم، صدرها سِعِن يضج بمياه مختزنة، تنفحه نسمات باردة؛ فَيُسَرِّب نقاطه إلى أرض عطشى، مِن بين قوامها ترتج إليتها كعصيدة طازجة. جسدها يحرق جفنيه، ترتفع درجة حرارة عينيه أولاً، ثُمَّ جسده

Scanned by CamScanner

كله، ترفل بعريها في شيخوخته؛ ينشأ حبل سُرِّي بين جفنيه وقضيبه، يشعر بأنَّ طائرًا سيُحلِّق بين فخذيه، كطفل مشاغب يحاول أنْ يبني قفصًا مِن عظامه، بينما يحاول في ذات الوقت إغماض عينيه بشدة حتَّى لا يفقد صورتها، وينقطع حبله السُّرِّي.. يريد أنْ يشعر بهذا الميلاد الجديد في كُلِّ لقاء يحتفظ بها عارية بين جفنيه، يسيطر عليها بينما يتخلَّق في رحم صورتها. شعر أَنَّه طفل حينما سمع فرقعات حذائها على أرضية الغرفة، صوت خطواتها يشبه ميلادًا ما، رائحة حذاء مدبوغ بالقرض تملأ أنفه. شعرتْ أنَّه يتعَمَّد قَفْلَ عينيه، أنَّه لا يتألم، وأنَّ غمَّازته تمتلئ وضوحًا وألقًا مِن جلسة لأخرى، ثُمَّ وقع بصرها على يده وهي تمتد لإخفاء مُجَسَّد تطلعاته المريبة، ابتسمتْ لأنوثتها التي أحيتْ الرميم، وقررتْ أَلَّا تعيد النظر أو تُفَكِّر في الأمر، ستهرب مِن هذه الفكرة، هو محض مُسِن أغمض عينيه وربما هي أنثى أكثر جذبًا مِمَّا عهد في حياته الآفلة.

Scanned by CamScanner

(1)

بينما غوغاء الموظفين يتهامسون مِن حولي؛ كنتُ آخر مَنْ يعلم! رُقيَّة لم تخبرني بما سيحدث، كنتُ حتمًا سأمنع أبي مِن هذه الزيجة الفضيحة. علمتُ مِن الإنترنت، مِمَّا يسمّونها مواقع التواصل الاجتماعي، وهي ليست إلا منصة للهجوم على الناجحين مِن أمثالي. قرأتُ موضوعات هراء (الشيخ المُسِن والد الوزير يتزوج للمرة السابعة) و(جدارة الفياجرا عند أسلاف الوزير). يكتبون أنَّه تَزَوَّج مِن قاصرة بينما الشعب يموت في الكهوف والأحراش. أصابني غثيان حتى تعرَّقتْ مؤخرتي على الكرسي، ولفَّني دوارٌ. الغبيَّة رُقيَّة أخفتْ عَنِّي، وربما ساعدتْ أباها الخَرِف في زيجته البليدة، تلومني على اغتصاب ابنتها كارمن في ضواحي سوريا، كَأَنَّنِي أنا مَنْ حرَّض المجاهدين على مناكحتها، أو أنني مَنْ أفتى بهذا النوع من الجهاد. صحيح أنها أختي، ولكنَّنِي في عمر أمها، أكثر منها نجاحًا وخبرةً. حكيتُ لها أنَّنِي مولود مِن رحم الحرب العالمية الثانية، لم يمنحني أبي شهادة ميلاد، ألصق بي اسمه كما يفعل أي آدميّ في عصره، ألحق بي لقبه الذي ظلَّ يطاردني كشبحٍ قاسٍ، لم يحلم لي أحلامًا بَرَّاقة! يُجْلِسُنِي إلى جواره؛ لأتعلم صنعته في رتق الأحذية، تلميع المراكيب، وحياكة ما مزقته أقدام النساء. لولا أنَّ أمي أرغمتْهُ على إدخالي المدرسة؛ لكنتُ الآن إسكافيًا عجوزًا، ينتقل مِن ظلٍّ لآخر، حاملاً كومةً مِن الأحذية البالية. سأكون في الطبقة التي تدافع عنها رُقيَّة، تلك الموصوفة بأنها رَثَّة.

Scanned by CamScanner

منذ أوَّل يوم لي في المدرسة رفضتُ أبي، رفضتُ أنْ أجلس إليه في السوق وأستمع إلى قصصه مع الزبائن، أو افتخاره بأنَّه مُسَمًّى على عبد القادر ود حبوبة؛ أشعر أنَّ هذه البطولات لا تعنيني، وأنَّ جِلْسَة أبي على قارعة الطريق تنتقص مِنِّي، زملائي جُلّهم مِن أبناء المشائخ والعُمَد، وأنا ابن صرماتي، لولا مجانية التعليم، ورأفة المفتش الإنجليزي كما تخيَّلْتُ ما كنتُ سأجد طريقًا للدراسة. قالتْ أمي لأبي:

- الولد ضروري يمشي المدرسة.

- أحتاجه يساعدني.

- أحسن لك يمشي ويساعدك في كبرك.

- المدرسة تخرب العيال.

ولا أذكر كيف حسمتْ أمي المعركة، ولكنني ذهبتُ؛ لأكتشفَ أنَّنِي الأدنى، كما أنَّ الطريق مُعَبَّد لأكون الأعلى. لم تكن المقارنة عسيرة على عقلي الصغير. تعمَّدتُ التفوق؛ لأدفنَ صورة أبي، لا كما يفعل الآخرون، يلهثون وراء التفوق؛ لرفع رؤوس آبائهم، ربما يفلحون في ذلك! ولكنني أجزم أنَّ رأسه المنكفئة على عطن الأحذية لن ترتفع أبدًا، ستظلُّ مشدودة إلى أقدام عابري الطريق، هم يتقدَّمون، وهو جالس ينتظر أحذيتهم المغبرة.

حكى لي أنَّه مولود سنة إعدام عبد القادر ود حبوبة، وكيف أنَّ جَدَّته شاهدتْ البطل يتحدى الإنجليز في حياته، وفي موته، أنشدني شيئًا مِن مرثية رُقيَّة أخت الشهيد. فيما بعد أدركتُ أنَّه وبعد سنوات طويلة أعاد تسمية رُقيَّة في ابنته! لم تكن الأقاصيص تحرِّك شعرة مِن جلدي، ولم أزل متسائلاً: "ماذا سيكون حالي لو انتصر ود حبوبة؟!".

Scanned by CamScanner

ظللتُ أتجاهل قصصه حتى لا يُسمِّم بها دماغي الصغير، أذكرها الآن؛ لأنَّها تعني أنَّ عبد القادر الذي هو أبي قد تجاوز قرنًا ببضع سنوات؛ فلماذا يتزوَّج الآن؟ كأنَّه يؤكد لي أنَّه لم يزل حَيًّا رغم كل سنوات الضنك التي قضاها، يريد أنْ يُعَذِّبَني، وأنا أقرأ سخرية معتوهي الإنترنت، تعريض ولمز كُتَّاب الأعمدة الصحفية، بل حتَّى الرئيس الواحد المُعَدِّد تَبَسَّمَ لي في اجتماع رسمي وقال هازئًا:

- مبروك زواج الوالد.. عُقبال نفرح بيك.

لأوَّل مرة أفطن لفم الرئيس وسنه المفقودة، أصابني بَكَمٌ مُفَاجِئ، ثم تداركتُ أنَّه الرئيس!

- آمين يا ريس.. في حياتك.

يا لحظك أيُّها الإسكافي العنيد! ها هي زيجتك تدخل جلسات مجلس الوزراء. تقول لي الطبيبة الساذجة:

- أعدنا لك الوالد شابًّا.

أقول لها، وهي تنتظر أنْ أغازلها:

- شكرا لكِ.. خبرتكِ غلبتْ سنوات عمره.

كيف تتخيل أنَّنِي سأسعد بنتائج معالجاتها؛ رغم أنَّنِي لم أتدخل؛ لأطلبها؟ رُقيَّة هي مَنْ فعل ذلك. ظللتُ بعيدًا عن فمه، متوجسًا مِن نتائج إصلاحه، وها هي توقعاتي تصدقُ تمامًا. سأنقلُ هذه الطبيبة إلى أتفه مستشفيات البلد، ولن تتمكن مِن رؤيتي مجددًا، ولتنفعها أحلامها الحولاء. تروي لي بفرحٍ أنَّ أبي يُبْدِي مقاومةً للشيخوخة، وأنَّه يزحف نحو شبابه الضائع بثبات نادر الحدوث؛ توقعتُ أنَّه يُدَبِّر أمره للعودة للحياة بقصصها ومدائحها، ما لم أتوقعه هو أنْ يتزوج،

Scanned by CamScanner

أو أنْ تقبل به أنثى مهما بلغت مِن اليأس. حكى لي السائق عن شائعة تسرى بين الموظفين، فقال:

- سمعتُ أنَّ والدك طلب الطبيبة للزواج.

بُهِتُّ كضفدعة وضع أحدهم كَوْمَة ملح على ظهرها؛ أخذتُ دقيقة صمتٍ ثُمَّ قلتُ:

- أبي رجل مُسن وخرفان.

- نعم.. نعم الطبيبة اعتبرته يمزح.

انتهرتُه لابد أنْ تفعل، انظر أمامك.

سكتَ مرتجفًا، أطبقتُ بيدي على ركبتي، شعرتُ بالشيخوخة تدب في مفاصلي. أيام كالحة ستواجهني، أحتاج مفاصلي قوية، وعقلي مُتَّقِدًا. السائق يَقود عابس الوجه، تمنيتُ لو أستطيع نَهْرَ الرئيس كما فعلتُ به؛ لتوقف عن مزاحه السمج. يفخر بأنَّ والده مزارع، وأنا أعلم أي مزارع كان! يطعنني بالكلمات مسنودًا ببزته العسكرية، يقول "نحن أبناء الشعب.. أبناء الغبش".. وعيناه مصوبتان نحوي كبندقية، يكون الاجتماع غثاء عن دعم الفقراء، أعلم أنَّه يتحدَّث، وسيظل يرغي، وفيما بعد سنفعل ما نريد، ونترك له المنصات يتقافز فيها كيفما يشاء القردُ بداخلِه، وحين يهبط منها يبصم لنا بالعشرة. أتركه ينشر أكاذيبه، أخرج بخيالي عن الاجتماع، أراني في طريق المدرسة بنعل رتَّقه أبي مِن كل جانب، بسروالٍ بالٍ، وحقيبة مِن قماش الدمُّور تجثم في ظهري كَقُرَادة، أشباح مِن الناس لم يشكلوا شعبًا بعد، تمضي في الطريق راجلة أو على ظهور الحمير. أربعة عقود ونيف منذ أنْ اندحرتْ دولة المهدية وبقاياها، ولم تزل الوجوه واجمة، والملامح

Scanned by CamScanner

يائسة. الرجل الأبيض رَتَّبَ لنا الواقع وخطَّط للمستقبل، ولكنه علَّمنا ثم خلطنا بطريقة عشوائية. وجدتُ نفسي مع مَنْ يمدح أبيه، أقولُ:

أبوي يا بحر الطمايا

أبوي الإيدو عطايا

في البدء استحيتُ، فيما بعد قتلتُ أبي بجملة واحدة، سألني مفتش التعليم الإنجليزي بعد أنْ شاهدني في مسرحية:

- ماذا يعمل أبوك؟

- أبي متوفى.

ربَّتَ على كتفي، وأمر المدير بصرف منحة شهرية لي، توجستُ مِن المنحة، ونظرات الرجل الأبيض، وتذكرتُ ما يُشاع مِن أنَّ المدرسة تخرب الأولاد. لم ألقَ المفتش بعدها. استدعاني المدير الوطني، زجرني على كذبتي، وصفني بأنَّني ابن أكبر صرماتي في البلد، وأنَّ عليَّ الفخر بذلك، وكتأديب لي، وحتى لا أكرر كذبتي؛ فإنَّ المدرسة ستأخذ نصف المنحة وتمنحني النصف. قبلتُ على مضض؛ كنتُ أعرف أنَّ المدير سيأخذها لنفسه، ويصرفها على زوجته المُتَطَلِّبة. منذ تلك العقوبة تعلمتُ أنْ أهتبل كُلَّ سانحة لصالحي فقط، أنْ أفعل بأبي وسيرته ما أشاء؛ لأكون كما أتمنى. أمي لم تكن تُبدي دعمًا أو معارضة لسلوكي، زاهدة كيوم أودعها الله المسيد، وأطعمها مِن التكية، ساهية تفكر في نقطة غير منظورة؛ ربما أَطْعِمَة المسيد، وعطايا الموسرين تُميتُ القلبَ! قلتُ لها:

- باكر ماشين للجامعة.

- الله يوفقك.

Scanned by CamScanner

انغمستْ بعينيها في نقطتها البعيدة، ثُمَّ أردفتْ:

- مِن وين أكلكم؟

- عندهم أكل، ومكان نوم.

تبسَّمتْ، حمدتْ الله، دعتْ مشايخها أنْ يحفظوني في تكية الخواجات، بخَّرتْنِي ببخور عفن. لم تسألني عمَّا سأدرسه، الأمر عندها لا يتجاوز سكني هناك لبضع سنوات، آكل وأنمو فيها حتى يتخم جسدي وأبدو منتفخًا كفأر التكية. كلما عدتُ إليها تنظر إلى خدودي، تلقي إليَّ بكلمتين ثم تذهب إلى نقطتها البعيدة. أمي جاءت إلى الدنيا بهدوء، عاشتها كضيف يجلس على حافة الرحيل، وغادرتها في صمتٍ وعادية كأنَّها ذهبتْ لزيارة الجيران. أحيانًا كنتُ أفكر في لحظاتها الحميمة مع أبي؛ هل تصنع له الدهشة؟ تُقَدِّمها له في صحن شهي، ثُمَّ تتركه في منتصف جوعه وتهرب إلى نقطة السهو البعيدة؟ أزجرُ نفسي، وأعود لأفكر مَرَّة أخرى حين تقع عيناي على قدميّ أبي المتشققتين كتربة طينية عطشى، تفوح منها رائحة القَرض، وجلود الأبقار. رحلتْ مشفوعةً بصمتي، وحزن ظاهر مشوب بفرحة مستترة؛ لتخلصها مِن متاعب زوجها الصرماتي. هذا الأب الذي يتشبثُ بالحياة كعنكبوت مراوغ، شبحه يطاردني حتى في شيخوختي المغطاة بنجاحاتي وحِفْنَة مِن الأوراق العلمية.

Scanned by CamScanner

(2)

- نعم يا عاطف.. أنا ذهبتُ بنفسي، وطلبتُها زوجة لأبي.
- غبية.. وغباؤك سبب تعاستك.

حرقتْني عبارته، حبستُ دموعي، ورددتُ بقوةٍ:

- قد أكون غبية، ولكني ما فاسدة.
- يعني أنا الفاسد؛ وماذا يعمل زوجك التافه، سفير لجلالة ملكة بريطانيا؟

دخل سيارته، صفعَ الباب بشدة، عنجهيته لا تفارقه أبدًا. في زياراته القليلة لي وأنا طالبة بالجامعة.. يتعَمَّد السخرية مِن أصدقائي وصديقاتي، لم أختر حزبه الإسلامي، ولا مساق دراسته، لم يهتم ماذا سأدرس، ولكنه اجتهد؛ ليضُمّني لقطيعه السياسي، قلتُ بجرأة:

- حزبك لا يعبر عني أبدًا.
- لأنَّك مقطعة وسوقية.
- حزبي يهتم بالبسطاء والمسحوقين.
- سحقوا أنفسهم؛ فسحقهم الله، مرمي الله ما يرتفع أبدًا.

تعوَّد أنْ يُحَرِّضَ الطلاب على مناوشتي، في إحدى مقارعاتي لهم صفعني مهووس على خدي، قبل أنْ أردَّها له ناوله فريد لكمةً، لم يكن أحد يتخيل أنَّ طالبًا مِن شهادة لندن بهذه القوة، بعدها اكتشفتُ محبته للفقراء، وانحيازه إلى طبقتهم. نَمَتْ بيننا علاقة حب جارفة، أخبرتُه أنَّ أبي صرماتي، لم يغير ذلك في حُبِّه شيئًا، انشغلنا بحبِّنا

Scanned by CamScanner

وحزبنا معًا. حين علم عاطف بأمر حبيبي وصفه بأنَّه كالحسناء في منبت السوء، حسناء لأنَّه مِن طبقة غنية، ومنبت سوء لأنَّه منتسب لليسار.

أحضرتُ أبي للطبيبة دون إخبار عاطف، فيما بعد علم بطريقته الخاصة. أبي يشيخ مِن فمه، في الآونة الأخيرة بدأتْ حالته النفسية تسوء، صار يرفض الطعام، يقول إنَّه يؤلمه في لثته، أضرب عن الكلام؛ خفتُ مِن تردِّي حالته، لم أستشر عاطف؛ رغم كونه ابنه الكبير، أعلم أنَّه سيرفض، كل هذه مبررات منطقية لم يقبلها الابن الأكبر. حينما كنتُ صغيرة تخيلتُ أنَّ اختلافي معه في الرأي يرجع لكوني ابنة الزوجة الثانية، مع علمي أنَّ أبي لم يتزوج أمي إلا بعد وفاة أمه، يوم ذاك كان عاطف قد تخرَّج في الطب، والتحق بوزارة الصحة، لم يكن في حاجة إلى رعاية الأب وعطفه؛ ولكنه رفض الزيجة وصبَّ عليها اللعنات. حكتْ لي أمي أنَّه ظلَّ يزدريها، ويُعَيِّرُهَا بلونها الأسود، ومع تعلقه بأم درمان وأهلها إلا أنَّه يستثني أمي مِن هذا التعلُّق، يرى أنَّ الصرماتي يختار أسوأ النساء بحسب ذوقه الواطئ. لم يذكر أبي شيئًا معيبًا عن زوجته الأولى، ولا كيف ماتتْ، ولكن في لحظات صفائه كان يلمح إلى أنَّ عاطف هو المتسبب في موتها. مِن خلال حكايات أبي وما أَلْتَقِطُه مِن قصص العابرين إلى بيتنا مِن معارف أسرتنا القُدَامَى، توصلتُ إلى الرواية التي تفسر لي أحوال عاطف النفسية. يُحْكَى في أمكنة متفرقة، وبأصوات متعددة، وبلا ترتيب أنَّ "الصرماتي حينما بلغ سن الزواج خرج مِن المدينة إلى مسيد كان يتردد عليه في أيَّام السوق، قصد مجلس الشيخ، جلس بأدبٍ جم، والشيخ يقضي حوائج

Scanned by CamScanner

النَّاس، فلما فرغ منها، وقبل أنْ ينبس بكلمة قال له:

- مسألتك مقضية إن شاء الله.

- شكرًا سيدي.

ثم التفتَ إلى الحيران، وقال لهم:

- كلموا النسوان يجهزن بتول للعرس.

الحيران وكبار الشيوخ لم يُظْهِرُوا تذمرًا، بتول جيء بها إلى المسيد طفلة مجهولة المصدر، نَمَتْ فيه بسرعة فأرة شرهة، تساوقتْ أنوثتها، وهفتْ إلى الرجال، ولكن الأزواج لم يطلبوها مِن الشيخ. طيِّبة حد السذاجة، تبتسم عند أوَّل لقاء، وتنقاد للرُقَاد بأريحية، كأنَّها خُلِقَتْ للضجيع بسلاسة ودون مقدمات لغوية. عرفها الحطَّابون كموقع لراحتهم بعيدًا عن زوجاتهم، في دغل كثيف بعد أنْ يتم تنظيف الأرض مِن الأشواك، وبعرات الأغنام اليابسة ترقد بتول وكأنَّها مستسلمة لإرادة السماء، تفتح ساقيها في تباطؤ، وتحسر ثوبها عن ردفيها، وكأنَّها تأكل أو تشرب لا تنسى أنْ تحمد الله بصوتٍ عالٍ، ثُمَّ تنصرف دون أنْ تطلب مالاً، أو تتعرّف على شريكها. لم يكن الشيخ يبدي ضجرًا مِمَّا تفعله بتول، حتى بعد أنْ تبرَّع بعض المقربين بإعلامه، كل ما قاله هو أنَّ روحها الطيبة ستلهمها الصواب، وأنَّها يومًا ما ستكون زوجة صالحة".

تمَّ زواج أبي مِن بتول وكان حَدَث المسيد، والقرى المجاورة. يُقَال إنَّ العروس خرجتْ للناس في أبهى منظر، حتَّى إنَّ كثيرًا مِن الحيران تَمَنُّوا لو أنَّهم سبقوا الصرماتي في طلبها. استفاقتْ بتول على جادة أبي، واستكانتْ لكونها زوجةً صالحة، رحلتْ معه، وظلَّتْ في تجوالٍ

Scanned by CamScanner

مستمر مِن سوق إلى آخر. بعد إنجاب عاطف وبحدسها المضيء طلبتْ مِن أبي الاستقرار في مكانٍ واحد؛ حتَّى تتمكن مِن إدخال ابنها المدرسة، الواضح مِن سيرتها أنَّ أبي لم يكن يرفض رأيها، وأنَّه يعشق هدوءها، وسجيتها المناسبة لرجلٍ ظلَّ يعالج الأحذية بصبرٍ وأناة.

يعتقد عاطف أَنَّنِي أُدَبِّر له المكائد حسدًا مِن قلبي؛ لهذا سعيتُ لتزويج أبي. طريقته في البنوة لا تشبهني، يمارس قهرًا على أبيه، أكاد أجزم أنَّ أشقى سنواته في عمره العريض، هي تلك السنوات العشر التي قضيتُها مع زوجي في عواصم أوروبا، وقضاها أبي سجينًا في غرفة قصيَّة بالطابق الأرضي مِن قصره. سنوات عشر لم أعد فيها للديار، كنتُ أتجوَّل فيها برفقة زوجي وابنتي الوحيدة، بينما هو بين جدران أربعة يخدمه أجانب، لا يرى ابنه مطلقًا. بعد عودتي وجدتُه قد هَرِمَ، وخارتْ قواه، لكنه يتشبث بالحياة على طريقته التي ابتدعها لمقاومة الزمن وعسف ابنه. حملتُه إلى بيتي بلا استئذانه، كنتُ أعلم أنَّه لن يمانع، بل لن يسأل عنه ولن يناقشني في الأمر، كُلُّ ما يعنيه أنْ يكون الصرماتي مَخْفِيًّا عن أعين الناس. بعد أنْ نقلتْه إلى بيتي ظلَّتْ حالته تتحسن، عادتْ الابتسامة ترتسم على شفتيه. كنتُ أوفِّر له الأطعمة البلدية قليلة الملح، والخالية مِن السكر، وهو كعادته لا يشرب إلا مِن الزير. إذا أَلَمَّتْ به وعكة يعالج نفسه بالأعشاب، لا تخلو حقيبته الحديدية مِن المحريب، الحرجل، القرض، والكمون الأسود. أكثر ما يعاني مِنه سعال خفيف، والتهاب أنفه. بعد أيَّام قلائل عادتْ لوجهه إشراقة الشيخوخة ووقارها المُضِيء. حين أجثو تحت قدميه، وأضع يدي على ركبتيه، وهو يرمقني صامتًا، كنتُ أتمنى أنْ أقتحم تجاعيد

Scanned by CamScanner

دماغه المسن، أنْ أحوم في تلافيف عقله كنحلة تُنَقِّبُ عن الرحيق، أتلقى إشارات مخه كأحد أعصابه، ثُمَّ أقوم بترجمتها؛ لأفهم ما يدور في عقله الذي هزم الزمن.

لم يعد فريد مهتمًّا بالعمل السياسي اليومي، مثلما كان حاله قبل زواجنا والتحاقه بوزارة الخارجية؛ صرتُ أشعر أحيانًا أنَّه يكِنُّ تعاطفًا وتضامنًا للشخصيات التي كُنَّا نناضل ضدها ونحن طلبة بالجامعة، يبرر ذلك بأنَّ الانغماس في مظاهر مشاكلنا المجتمعية سيجعلنا جزءًا مِن المشكلة. اختار أنْ يُفَرِّغَ نفسه للكتابة، وما أسماه نقد العقل السوداني. أنا وابنتي كُنَّا نأخذ النذر القليل مِن وقته واهتماماته، هذا الوضع لم يكن يزعجني؛ لأنَّه أتاح لي كثيرًا مِن الوقت للاهتمام بأبي، وتجهيز نفسي للمعركة الحاسمة مع عاطف. ولكن يبدو أنَّ تجاهل فريد لكارمن هو الذي دفعها أنْ تكون بعيدة عن اهتمامات كلينا، وتغرق في الأفكار التي ظللْنا نحاربها بشدة وبطرق مختلفة. في نظريات فريد لم أقرأنِي، أو أجد أبي؛ لذا كنتُ أجادله:

- إنَّك تكتب؛ ليقرأ لك الخواجات فقط.

- لو ركزتِ قليلاً؛ كُلّنا موجودون! أبوك، عاطف، أنتِ وأنا.

- المهم أنْ يقرأ الشباب، أنْ تكون هنالك طريقة لنشر النور بدلاً عن الظلام.

ثم أسكتُ، وأعود لأفكر في دماغ أبي، والآلام التي احتواها قلبه طوال فترة حكم الإنجليز، وما تلاها مِن أنظمة محلية متقلبة المزاج، كيف تراه احتمل كل هذا الهجير الحياتي؟! بل وقاوم الموت بشراسة حتى أبعده عن أنفه، وظلَّ يتنفس باقتدار. إشارات دماغه تبثُّ

Scanned by CamScanner

صورة آيات مقروءة بطريقة خاطئة وملتبسة مع مدائح أولاد حاج الماحي، تنبعث رائحة زهرة الطلح مخلوطة بجلود أحذية مبللة بماء مستحلب القرض القديم، رائحة الحنوط والمحلب معًا، عطور النساء اللائي تزوجهن، وواراهن التُرْبَة بيديه المتجعدتين.

يَصِرُّ عاطف على أنَّ المسحوقين سحقوا أنفسهم؛ فنسيهم الله! وأنَّ أبي وكُلّ فقراء البلاد هم اللذين قادوها للخلف؛ لأنَّهم ارتضوا لأنفسهم الهوان والهامشية. في الجامعة ظلَّ يحذرني مِن أنَّه يتضرر مِن نشاطي المعارض، وأنَّه مهما طال الزمن سيضع لي حدًّا، حتى لو اُضْطُرّ ذات يوم أنْ يَفُكَّ الاقتران بينا اسمينا، قال إِنَّنَا لن ننتمي إلى عبد القادر واحد أبدًا. ابتسمت له ولم أفهم مغزاه حينها.

Scanned by CamScanner

انعطافاتُ ليالٍ لا تُنْسَى

بينما تعالج الطبيبة فمه انشغل بإخفاء اشتهائه، وتوترات الهزيع الأخير مِن رجولته. تذكَّر بتول في ليلتها الأولى، لم يكن قد سمع شيئًا عن سهولة النَّيْلِ مِن جسدها، لم يفكر في مستوى جمالها، كُلُّ ما كان يريده مِن الزواج امرأةً تطفئ حريق شبابه، وتريحه بعد عناء الجلوس في النهارات؛ لإصلاح الأحذية التي مزَّقها المشَّاءون. لم يخطط لإنجاب الابن البكر، يعلم أنَّ النساء إذا ما فتحن أفخاذهن تعرضن للحمل كسائر إناث الأرض، ولكنه سعى للزواج بنتائجه كَمَنْ ينتظر أقدارًا لا مفر منها. يتذكَّر فخذي بتول المكتنزين، قصيرة، وقريبة المنال، ظَلَّتْ تحتفظ بجمال فخذيها وتكوُّرهما حتى أيَّام موتها، عيناها ساهمة وضاحكة في آن واحد، شفتاها كأنهما في حالة للكلام حتى وهي نائمة، حَلَمة صدرها قاتمة اللون، وفي حجم بَلَحة كبيرة. في أيَّامه الأولى مع طبيبة الأسنان يتذكَّرها كأنَّه راحلٌ إليها. يتكئ على عنقريبه الهبَّابي في بيت رُقيَّة، ويصيح بصوت عالٍ (رُقيَّة.. يا بنتي تعالي بسراع) تأتيه مسرعةً، يأمرها أنْ تدلك قدميه المتشققتين. منذ وفاة بخيتة صار يعتمد على ابنتها، دَرَّبَها على أنماط حياته، يرفض كل الأنظمة المستحدثة. عندما يشعر أنَّ الدم يتدفق إلى قدميه يحس راحةً عميقة، وبأنَّ أيَّامه في الحياة تضيف إليها يومًا آخر، يستعيد لحظاته الجميلة، ولا يُفَكِّر في الأيَّام البائسة، تجيئه بتول بعد أنْ زفَّتْها نسوة المسيد في قرمصيص مُضَمَّخ بعطر الصندل والطلح،

Scanned by CamScanner

قادها إلى الراكوبة التي بناها في طرف الوادي. شعر أنَّه متوترٌ، علاقته بالنساء لم تتجاوز ملامسة أحذيتهن، رغم ذلك كان يحسُّ دفء الأحذية حين تغادرها الأرجل الناعمة، تثيره روائح العرق المتراكمة على بطن الحذاء، خاصة عرق المتزوجات المشوب بالحناء ودخان الطلح، في العنقريب عليه أنْ يفعل أشياء كثيرة، لم يتمكَّن مِن فعلها وهو صبي. أوَّل ما خطر بذهنه رؤية قدمي زوجته البتول، برفقٍ أَقْعَدَها على البرش، جثا على التراب، كان الوقت نَدِيًّا، ذرات الرمل لم تزل محتفظة ببرودة الليل. خلع حذاءها برفقٍ، ودَّ لو يستنشق عبقه، لكنه استحى، جاس فيه بإصبعه، ثُمَّ غافلها ومدَّ إصبعه إلى أنفه ينشق الرائحة التي يُحِبُّها، أغمض عينيه وهو يحكُّ أنفه، فتحها على قدميها، صغيرتان، ذواتا أصابع متناسقة، تقبعان أسفل ساقين ممتلئتين، لونهما كطَلْحَة في مستنقع نيليّ، ترتسم الحناء مِن أسفل الركبة حتى أخمص القدم، تشبه رسومات شاهدها في خلاء. رفع قدميها وأحاط بها خديه، ثُمَّ أنفه، ضغط على باطنهما بأصابعه؛ سمعها تتأوه، تتأود مسترخية، أدرك أنَّ فعلته أسعدتْها، فكرَّر تمرير قدميها على خديه وشفتيه، وهي تثغو كشاة صغيرة. حينما توغلا أكثر أزاح القرمصيص عنها، سمع حفيف البرش تحتها، وانساب إليها دون عوائق. قامتْ بتول تنفض أفخاذها مبتسمةً كما كانتْ تفعل دومًا، لم تنظر إليه، وهو منكسٌ رأسه، منكب على خيبته وأسئلته التي لو طرحها فلن يستمر معها. لم تفكر في خداعه، لم تشعر أنَّ شيئًا يحتاج إلى شرحٍ. قالتْ له: "قتلتني جوعة مشتهية عصيدة بلبن". خطر له أنْ يسألها عن الرجل الذي فعلها، وما إذا كانوا رجالا، وهل

Scanned by CamScanner

يعرفونه؟ تصرفها بعادية، وسلاستها قبل وبعد لم تُحَفِّزْه على طرح أسئلته، ردَّ عليها "القدح دا فيهو عصيدة بلبن". حملتْ القدح إلى منتصف العنقريب، أقعدتْه بين فخذيها مَادةً قدميها حتى لامستْ ركبتيه. نظر إليها وهي تلقمه الطعام، تنحني عليه بصدرها الشامخ، كأنَّ يدًا لم تمتد إليه. قضم إصبعها عمدًا؛ فأصدر صوتَ ألم راقه أكثر مِن أصواتها السابقة، شعر أنَّه يحتاجها لبقية عمره، لن يُطَلِّقَها مهما يكن؛ يمكنها أنْ تذهب إلى المسيد، وتعيش فيه كما كانتْ، وربما يأتي أحدهم ويتزوجها بدلاً عنه، لن يطلقها ليس شفقةً عليها؛ ولكن لأنَّه يحتاجها حَقًّا، في اللحظات التي قضاها معها أحسَّ كم هي مريحة، ووديعة! شعر أنَّه يشتهيها، أزاح القدح عن فخذيها، وألقى به أرضًا، جمع قدميها نحوه، وسرعان ما ثَنَتْ ركبتيها، وأفرجتْ عن أساريرها، استسلمتْ له وكأنَّها تنتظره في جوعٍ أكبر. أسلم أذنيه لحفيف البرش وهو يتلوى بينهما كفراء جديد. سيظلُّ يعيد الصور في ذهنه حتى تخبره الطبيبة أنَّ جلسة اليوم قد انتهت، يبتسم لها وهو يحاول النهوض مِن مقعدها الوثير حاملاً صور بتول في أعماقه.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

(1)

في صباي ساورتْني الشكوك أنَّ أبي ليس أبي! أنظر عميقًا في عيني أمي؛ أبحث عن إجابةً، عيناها محايدتان كالعادة، ما كان يَرِّنُ في أذني مِن همس الصبيان عمَّق وساوسي. كم تمنيتُ أنْ تصدق شكوكي! يجب أنْ يكون لي أب غيره، يمنحني خصائصه القوية ثُمَّ ينسحب من حياتي. كنتُ أُفَضِّلُ أنْ أكون ابنًا لأحد كِبَاش المسيد على أنْ تربطني عوامل الوراثة بهذا الأب! رغم ما يظهره لي مِن عواطف، ويبديه مِن اهتمام كنتُ محايدًا تجاهه، أبصره كَبَرْدَعَة محشوة بوبر الأغنام، قدري أنْ أقول لها: أبي!

سألته: يا أبوي أنت كبرت؛ تاني ليه تعرس؟

وقبل أنْ يجيبَ قالتْ رُقَيَّة:

- هو مخير في حياته.

كان مطبقًا شفتيه على فمه الجديد، وكأنَّني أسأل رجلاً غيره، سْعل وحكَّ أرنبة أنفه، ثم قال: عايز الولد.

كلمتان فقط! ابتسمتْ رُقَيَّة شماتةً فيَّ، أعلم أنَّها تريده أنْ ينجب؛ لتأخذ ولده بعد موته، تُسَلِّي به نفسها، وسني يأسها، وتنسى عقمها عن غنجاب الولد، تدسُّ كل رغباتها الذاتية تحت غطاء مَحَبَّتِهِ، وتتجاهل رغبتي المعلنة في أنْ تظلَّ حياة أبي ومماته معًا طي الكتمان، وأنْ أمضي بأبنائي وأحفادي نحو الحياة الجديدة التي تليق بنا. رمقتُها بعيني الوزير، عينان تلقيان بالتفاهة على جُثَّة المنظور، سكتتْ الغبية، لم أضف كلمةً أخرى، لن يفهما.

Scanned by CamScanner

قدري أنْ أخرج مِن بين الأغبياء، تنجبني السَّاهمُ المقطوعة مِن ظهر الإسكافي مُدَّعِي الحكمة. كنتُ ذكيًّا في قمامة لفظها المجتمع. ماذا يريد الكهل مِن الإنجاب؛ ألا يكفيه أنَّ اسمه اقترن باسمي، وأنَّه يُذْكَر في الجامعات، وفي مجلس الوزراء، الرئيس نفسه يقول (بروف: عاطف عبد القادر) ويَمُطُّ ألف عبد القادر أكثر مِن ألف عاطف! كل هذه النجاحات وهو لا يحسها، ولا يُقدّرها. يريد فقط أنْ يحيا كما يروق له، وكأنَّنا لم نزل في راكوبته بوادي المَعَّاز. كنتُ طفلاً عبقريًّا في محيط يهدر بالغباء، واللامبالاة. حاولتُ أنْ أنزع وادي المَعَّاز مِن رأسي، ولكن تتربص بي صورة الأغنام يهشها الرعاة مع الخريف؛ لترتع في التُّمَام الأخضر، ترفع قوائمها الأمامية وتمدها؛ لتقف على الخلفية زاجةً رؤوسها بين أغصان الطندب تلتقط الحنبق، تلتهم نُوَّار الطلح. تعوَّد الرعاة أنْ تشبق أغنامهم في وادينا، بعضهم كان يحاول أنْ يفتح مسارب للحديث مع أمي، وهي تغلقها بجسارة، يكتفون بأغنامهم الحُبْلَيَات ويغادروننا مع أوَّل الشتاء. أبي يذهب إلى سوق المدينة، ويعود في الليل مبتهجًا. يأكل عصيدته باللبن، يتجشأ بصوت مدوي، ثُمَّ يغرس عنقريبه كوتدٍ في بطن الوادي، تكون أمي قد أنهتْ دخان الطلح للتو، ودلكتْ جسدها. تذهب إليه غير هَيَّابة أو مُتَسَلِّلَة، تجلس على حجره، ويبدأ بينهما الضحك الأجوف. أراهما على ضوء القمر، ألمح اشتهاءات أبي الرعناء تسقط على رمل الوادي، حين يلقي بالطاقية مِن رأسه ويبدو شعره الكثيف.. أعلم أنَّه يجب عليَّ أنْ أنسحب مِن المشاهدة، في المرة الوحيدة التي لم أفعل شعرتُ بانقباض، قضيتُ الليل أحاول إخراج عصيدتي مِن بطني وهي تأبى.

Scanned by CamScanner

ما يفعله أبي بأمي كان في غاية اللطف، أو أنَّني أراه هكذا الآن! ساعتها كنتُ أتصور أنَّ أمي أسمى مِن ذلك، وأنَّها لا تَكِنُّ محبةً لأبي، بل إنَّها تستقبح عرقه، ويديه الخشنتين، انكشف لي أنَّها تُحِبُّه، تستلطف أفاعيله، وتخضع له كمعزة جامحة.

قبل شروق الشمس كنتُ أصحو فأجد فراشهما يتوسط مكاننا. أبي يطلق أغنامه، وأمي عائدة مِن الخلاء بعد أنْ رشحت بولها وما فيه من نفايات أبي. مِن ليالي الوادي تلك حبلتْ أمي، بدأتْ بطنها تتكوَّر أمامها. لاحظتُ أنَّها فَرِحة ولكنها قليلة الكلام، وعَدَهَا أَبِي أَنَّها إذا أنجبتْ بنتًا؛ فسيذبح لنا كبشًا ذا قرون، وإذا كان لدًا؛ فسيذبح تيسًا، حتى الآن أجهل رغبته في أنْ تولد له بنت تلك الأيَّام، بعد أنْ أمسكَ برُقيَّة، وزرعها في عالمه بدأتُ أفهم بعض التفسير، خَطَرَ لي أنَّه معهن يستطيع أنْ يعيش كما يشاء، وأنْ يُجَدِّفَ في شيخوخته كما يريد، بالتأكيد ليس لأبي أدنى وعي في ماضيه أو حاضره بحقوق المرأة، أقصى ما يريده هو أنْ يعيش كرجلٍ نَكَّاح، والنساء مِن حوله يباركنَ حياته. أنجبتْ أمي حسب الله، لم يخرج للدنيا كطفل طبيعي، ربما كان طفلاً سويًّا ولكن معاناتها في الولادة جعلتْ منه معتوهًا. جاء أبي بالقابلة التي أوثقتْهَا بحبل على ركيزة الراكوبة، علَّقتْ يديها وشدَّتْ وثاقها. كنتُ أنظر مِن ثقوب الحصير والقش في خوف. فرَّقتْ ساقيها كأنَّها ستلقي بغائطها على الأرض. تخيلت أنَّني خرجتُ للعالم هكذا، وأمي مصلوبة ممزقة الأوصال، دمعتْ عيناي لأجلها، هي أوَّل مرَّة أتذوق طعم دمعي مخلوطًا بمخاطي المتعفن، طعم الملح والصديد لازلت أذكره! أذكر هواجسي مِن أنْ تقتل القابلة أمي. لمحتُ أبي

Scanned by CamScanner

مبتسمًا كأنَّ زوجته ستنجب معجزة الكون، رآني مختبئًا؛ نَهَرَنِي:

- أمش مِن هنا يا ولد.

قلتُ مختنقًا بالعبرات: أمي!

- أمك ما عليها عوجة.

ربَّتَ على كتفي بحنان، تمنيتُ أنْ يحضنني، لكنه لم يفعل! عَبَرْتُه نحو الفناء وتمددتُ عليه. خرجتْ القابلة مبتسمةً لتقول لأبي (مبروك.. ولد) ابتسم أبي في فتور، وقال (الحمد لله) انطفأتْ حمدلته كفقاعة. ظَلَّتِ القابلة تجول بين راكوبة أمي والخلاء، بينما أبي يمنعني مِن رؤيتها، خفتُ أنْ تكون قد ماتتْ في قَيْدِهَا. فيما بعد حينما رأيتُها حَيَّة تمنيتُ لو أنها ماتتْ، ولم تنجب حسب الله.. غريمي المعتوه. ذبح أبي التيس الأسود كما وعدنا، أعفن تيس بين أغنامه، وأكثرهم اعتداءً على الأغنام، وهجومًا على الكلاب الضالة، كان يسميه الحارس. توقعتُ أنْ يُسَمِّي طفله باسمه، ولكنه أسماه حسب الله، كأنَّه يتوقع أنَّه سيحتسبه في عداد الموتى منذ يوم ميلاده. حين رأيتُه كان رأسه مستطيل الشكل، أجرد الشعر، عيناه جاحظتان، عددتُ أصابعه فوجدتُها ستة في كل كفٍّ. هل كان حمل الفراش إلى الوادي، وقهقهات الليل لإنجاب هذا المسخ؟! أراه ينمو بسرعة مذهلة وهو ممدد أسفل أمي، في أسبوعه الأول أمسك ثديها بأصابعه الستة وكشطها كَمَنْ يأكل دومة. كنتُ أحسه منافسًا شَرِسًا رغم تشوهاته المقززة، يتصرف في صدر أمي وكأنَّه فريسة لفمه الكبير، قلتُ لها:

- الولد دا ما نصيح، يكمل لبنك.. وبعدين يأكلك.

- ما تقول كدا.. أخوك ولد مبروك.

Scanned by CamScanner

في الأسبوع الأوَّل أنجبتْ عنزاتنا الخمسة، مرَّ أحد المفتشين الإنجليز بوادي المَعَّاز، وجاءنا أبي مِن المدينة مُحَمَّلاً بالموز؛ لكل هذا تراه أمي منبع البركات، وسيجلب لنا الخيرات، كلما أخبرتْنِي بذلك كنتُ أمعن النظر في رأسه الأفطس، وأصابعه الزائدة في بلاهةٍ. لم تفكر أبدًا في أنَّ طريقة ولادتها مصلوبة، ومحاولات القابلة إخراج الكائن ذي الرأس الضخم في معركةٍ دامية، وكأنَّها تخلع شجرة مِن جذورها قد أضرَّتْ بمولودها المتضرر منذ بدء خلقه، وأخرجتْهُ مطموسَ المعالم.

عندما انتقلنا إلى المدينة ودخلتُ المدرسة، كنتُ أتحاشى أنْ يرى زملائي أخي، أتجنب أنْ يروا أبي. الشخص الوحيد الذي كنتُ أتسامح في رؤيته هو أمي، وهي لم تكن تعبأ بهم. بدأ تعلقها بحسب الله يزيد عن قدرتي على الاحتمال، رغم أنَّها اكتشفتْ أنَّه لن يتكلم أبدًا عندما بلغ الثامنة، ومؤخرًا اكتشفت أنَّه لا يسمع أيضًا، وأنَّ جمجمته الكبيرة خالية إلا مِن تسول المارة. ظلت تناديه المبارك، وأحيانًا حسبو. يرقد على حجرها؛ فتمسح رأسه الأصلع. كنتُ أحسها تُحِبُّه أكثر مِنِّي؛ فيشتدُّ غيظي، كيف لهذا المعتوه أنْ يسلبني أمي. لم تكن تلحظ غيرتي أو كراهيتي له، أعلن أمامها كل مشاعر البغض؛ فتتجاهلها، أتصرف معه بقسوةٍ؛ كل ما تقوله لي (حرام عليك.. دا أخوك المبروك). ونحن في وادي المَعَّاز أشعلت الراكوبة وهو نائم، منتهزًا فرصة أنَّ أمي في الخلاء. مع اشتعال لسان النار عادتْ مهرولة، جَثَتْ على الأرض تهيلُ التراب على النار حتَّى انطفأتْ. حَمَلَتْهُ بعيدًا عن النار، لم توبخني، لم تسألني كيف أشعلت النار؟ ولكنها أَسَرَّتْها في جوفها العميق، أخرجتْ كُلَّ حزنها عندما غرق المبروك، وشبع موتًا

Scanned by CamScanner

تحت المياه، مِن يومها وحتى رحيلها حَمَّلَتْنِي مسؤولية موته كاملة.
بعد أنْ صرتُ شابًا متأنقًا في المدينة، وتناسيتُ ما كان مِن أيَّامي في وادي المَعَّاز، ولم يعد ثمة شيء يذكرني بها أكثر مِن مَرْأَى حسب الله، على الأخص وهو يتسول الطعام مِن النساء والأطفال. ذاك اليوم مازحه صِبْيَة مراهقون، وأنا أسير في ذات الطريق، قال أحدهم:

- أرح معانا البحر يا المبروك.

قال آخر: سوقوا عاطف دا بدله.

- المبروك يزيد لينا صيد السمك.

تدخلتُ ودون أنْ أشعر قلتُ:

- سوقوا المبروك.. أنا بشرِّد السمك.

ضحكوا جميعًا عدا أخي، ابتسم لي، ونظر لهم في شوقٍ. عادوا جميعًا مِن البحر عدا حسب الله. قالوا لأمي إنَّه كان في طرف الشاطئ عندما كَهْرَبَتْهُ سمكة بردة ضخمة؛ فسقط ثُمَّ التهمته دوَّامة، وهو يلوِّح بيديه، وإصبعاه الإضافيان يتراقصان. بدأتْ أُمي تصيح وتبكي بجنون، لم تسكتْ حتى تبرّع الآخرون باتهامي أنَّني الذي أوعزتُ للصِبْيَة بإغراق أخي، نقلوا لها الحوار بيني وبين الصِبْيَة، ساعتها سكتتْ عن النواح، وبدأتْ ترمقني في حزن، تكرر جملةً واحدة (المبارك في الجنة.. المبارك عريس الحور). ارتسم على وجهها حزنٌ لم يفارقها حتى لحقتْ بابنها، ربما هما في الجنة الآن! ألحقتْ بي ذنبًا لم أكن أقصده في قرارة نفسي، رغم أنني ولحدٍّ ما كنتُ سعيدًا بالخلاص منه، وبخلاصه مِن عذابات الحياة التي لا قِبَل له بها.

Scanned by CamScanner

(2)

كنتُ صغيرة عند زيارات عاطف لنا مِن داخلية الجامعة في آخر الأسبوع، يبدو متجهمًا، لا علاقة له بأبيه، ما يفعله هو أخذ المال الذي يحتاجه مِنه ثُمَّ يغادره ببرود. أمي تحاول استرضاءه، وتلبية حاجاته في الطعام، وغسل ملابسه، ولكنه يأخذ ما يريده بيده اليمنى، ويصفعها بكلماته الجارحة. تلصصتُ عليهما وهو ينتقد حملها، ينظر باشمئزاز إلى بطنها المُتَكَوِّرة على شهرها الخامس، يقول لها:

- العالم لا يحتاج لبائس جديد.

تقول بعين دامعة:

- حرام عليك.. قبل كدا أجهضت بسبب كلامك.

- أجهضت بسبب فقرك، وسوء أكلك.

خسرتْ أمي حملها الأول، وثلاثة مرات متتالية بعدي، أنا الناجية الوحيدة مِن بطنها. عاطف يصر على أَنَّنِي حملها الأول، وأنَّها تكذب؛ لأسباب لم يبح بها إلا بعد أنْ حَمِيَتْ معاركي معه، كانتْ أمي قابعة في تُرْبَتِها لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وعن نسبي الذي حاول عاطف سلبي إياه. أبي لم يكن مهتمًا بالرد على ترهات ابنه الوحيد، في صمته كان يذكر اسم حسب الله كما يذكر اسم الخضر، أحيانًا يَجُرّه في مسبحته بعدد معلوم، وإذا أراد أنْ يبعد عنه عاطف كَرَّرَه بضع مرات، ساعتها ينهض ويغادره كالملدوغ. أمي بعد إجهاضها لم تعد تحفل به، اعتبرته عدو إخوته، وسبب خسارتها المتوالية لما تحمله

Scanned by CamScanner

بطنها، حكتْ لي أنَّ أبي رجل طيب، ولكنه غير محظوظ بهذا الابن الأناني.

أوَّل مرَّة التقتْ أبي حينما حملتْ له الطعام في ظل الشجرة التي تعوَّد أنْ يجلس عليها، ابتسم لها! لاحظ اتساع حدقتيها، شعرها المتجعد يحيط بجبينها، فيه حُمرة تخالف سحنتها، كأنَّها علم لدولة بدائية خرجتْ للتو تبحث عن ذاتها. لم يلحظ بطنها المنتفخة قليلاً، يُقَال إنَّه لم يكن يدقق في السيدات كعادة الجالسين على الطريق يبحثون عن قوتهم. بطن أمي لم تحملني بعد، لم تزل فتاة حين عشقتْ الفَرَّان، وغَرَّرَ بها ذات ليلة ساخنة. سأحكي ما سمعتُه فيما بعد، عندما كنتُ أسعى بكلتا أذنيّ لأَدِلَّة تنفي مزاعم عاطف أنني ابنة زنا، وأَنَّنِي لا أمتُّ بصلة لأبي الصرماتي. ظَلَّتْ أمي رغم انشغالها بافتضاح أمرها تحمل الطعام لأبي امتثالاً لأوامر جَدِّي، لم يحدث أنْ تَحَدَّث معها إطلاقًا، لم يتجاوز حدَّ أنْ يبتسم لها، يشكرها، ثُمَّ يأكل طعامه، ويغسل الصحن جَيِّدًا قبل أنْ يعيده لها. يزعم عاطف أنَّ نَزَق أبي، وفوضى أمي هي التي أوقعتْه في فخ الزواج منها. قال لي:

- بدل الاهتمام بأبي؛ فتشي عن والدك الفَرَّان.

- أنت صفيق.

- بيننا الـ DNA.

رأيتُه يذبحني بدم بارد، يُقَطِّعُ لحمي، ينفيني عن العالم، رأيتُ قبحه في أوقح مظاهره؛ حزنتُ كما لم أحزن أبدًا. قررتُ أنْ أتحداه، أنْ ألجمَ لسانه القذر، كيف يمكن لوالدي الطيِّب أنْ ينجب كَوْمَة الشر هذه؟! ربما ستثبتْ الفحوصات أنَّه ليس أخي، وأنَّ أمه هي التي لفحته مِن

Scanned by CamScanner

رمال المسيد، ثم راق لي هذا الخاطر، وأخذ الكثير مِن خيالي حتَّى تمكَّنْتُ مِن طرده.

عندما غابتْ أمي عن إحضار الطعام للصرماتي في ظِلِّ شجرته؛ افتقدها، حدثوه أَنَّها محبوسة في السجن بعدما ذهبت تشتكي الفَرَّان. حضر يوم الجلسة الأولى، وقبل أنْ يبدأ القاضي جلسته نزع عمامته مِن رأسه، متهرئة، ومغزولة بعرقه المخلوط بغبار الشارع، وضعها على رأسها، سترها عن الأعين، وكالعادة فهم أفراد الشرطة، والآخرون مقصده، أسموه (مقنع الكاشفات). عَقَد قرانه عليها في ذات المكان، خرج بها مرفوع الهامة، وخرجتْ مِن مأزقها دامعة. إمعانًا مِنِّي في تحدي عاطف قررتُ أنْ أذهب إلى المستشفى الجامعي الذي يديره؛ ليشهد علماؤه الذين يستقدمهم مِن أوروبا أَنَّنِي ابنة الصرماتي، ولا علاقة لي البتة بالفَرَّان الهارب؛ ليشهد العالم المتمدن نوعًا مِن خلافاتنا. يوم استلام نتيجة الفحص حضر عاطف متأنقًا، تفوح مِن بدلته أغلى العطور، بصحبته بناته المدللات، وأمهم الشمطاء، حضرتُ وحدي كشجرة ضاربة الجذور في أرضها. يريد أنْ يبترني في حضورهن أنْ يطلقني كأخت، يلقي بي بعيدًا عن عَالَمِهِ المخمليّ المزعوم، تذكرتُ أبي وهو يرفو حزن أمي ويغطيها بعمامته، استعداده لتربية مولود يعلم أنَّه لا ينتمي إليه، الآن ولده يحاول أنْ يُعَرِّيَنِي ويقذفُ بي للمجهول. لم أخطط أنْ أُشْرِكَ أسرته في الأمر، سعدتُ عندما اختلى بنا الطبيب في غرفته، وسَلَّمنا النتيجة مبتسمًا، قال "كلاكما أولاد عبد القادر، جيناتكم تقول ذلك، وأنكما خليط مِن قبائل الوسط وأقاصي الغرب". كأَنَّ طلقة أصابت رأس أخي، تهدّلتْ شفتاه في بلاهة، ونتح

Scanned by CamScanner

قلبه حتى سمعتُ دقاته. لن يستطيع نفي نسبي، سأظلُّ ابنة الرجل الذي تَبَرَّأَ مِن حياته، وأمسك بقشور اسمه. بدا مرتبكًا، الآن ماذا سيقول لجوقته بالخارج؟ وأي فرية يمكنه أنْ يهيننني ويبتزني بها، حاولتْ ابتسامة ما أنْ ترتسم على شفتيّ، قمعتُها بهدوء. رمقته بنظرة طويلة، أشاح بوجهه عني، مخاطبًا الطبيب:

- أنا لا علاقة لي بقبائل غرب السودان.

- العلم لا يكذب يا دكتور، ولا يتجَمَّل كما تعلم.

- نعم.. ولكن نظرياته قابلة للتكذيب، لولا ذلك ما تطور العلم.

- حتى الآن لا توجد نظرية كَذَّبَتْ ما أجريناه من تحليل.

انقبض وجه الطبيب كَصُرَّة عجوز متغضنة، تهيَّأ لكتابة استقالته، ومغادرة الأمكنة التي تجمعه بدكتور عاطف. كنتُ أفكر في أمي، حتى موتها ظلَّ عاطف يتهددها بسرِّها القديم، لم يجرؤ في حياتها على إخباري بتوهمه. قبل رحيلها حكتْ لي كل شيء، كيف أنَّها صبيّة غَضَّة لم تقصد أنْ تلهو بنفسها، ولكنها وقعت في حب ذاك الفران المُخاتل، أوهمها بأنَّه سيتزوجها لا محالة، ثُمَّ تنصّل عنها، تركها تحترق على نيران فضيحتها، وهرب إلى حيث لا يعلم أحد. أنقذها أبي، احتواها بحنو، استسلمتْ لحبه، ونسيتْ واقعها القديم، بطنها ظلَّتْ تُذَكِّرُهَا أنها أخطأتْ ذات ليلة، تمَّنَتْ أنْ يسقط ما في بطنها، أَلَّا يستمر معها في حياتها الجديدة، ما ذنب الصرماتي أنْ يُبْتَلَى هكذا؟! أسَرَّتْ له بأمنيتها فقط، ردعها قائلاً بهدوء "احذري، كله بمشيئة الله". وشاء الله أَلَّا يكمل الطفل شهره السادس. سقط عنها في ظروف طبيعية، خرج وهي متكئة على فراشها، تتوسد ذراعها،

Scanned by CamScanner

بهدوء انساب الماء والدم، رأتُه طفلاً مكتملاً، تقول إنَّها حتَّى بعد سنوات، لا تستطيع أنْ تستبين إذا ما كان ولدًا، أو بنتًا، وإنَّها مع تكرار الإجهاض في حياتها لم تشعر بسقوط جنين بسلاسة، ودون ألم كما حَدَث لها في حالتها الأولى. ماتتْ أمي وهي تتمَنَّى لو أنَّها تمكنتْ طيلة محاولاتها مِن إهدائي أخًا أو أختًا. لم يخالطني شك في صدق روايتها، وفي أَنَّنِي ابنتهما؛ ها أنا ذا أمضي مع عاطف بثبات نحو وهمه، يبدو أنَّه مَصْعُوق، ترك قضيته الأساسية في نفي نسبي لأبي، وأمسك في نفي علاقته العِرقية بغرب السودان، أثار لغط مَنْ يشعر بأنَّه عِرْق مقدس، كِدْتُ أَضحك مِن خوائه! لم يدرك كَمْ مَرَّة اِرْتَّجَتْ هذه البلاد وخَلَطَتْ أُنَاسَهَا، وخلطته مع العالم. لم أمسك وريقة الطبيب بين أصابعي، اكتفيتُ بكلماته؛ ما حاجتي للورق؟ أمي وقد ارتحلتْ، وأبي يعلم أَنَّنِي ابنته؛ سأترك الورق لِمَنْ يحتاجه. نهضتُ واقفةً، على فمي ابتسامة بألف معنى، خرجتُ بعد أنْ مددتُ يدي للطبيب مودعة، ابتسم لي بفرح! في الممر شاهدتُ بنات أخي وأمهم، ابتسمتُ لهم بشق أنفي، مضيتُ للخارج دون أنْ أحمل مَلامِحهم في رأسي. بسبب لعنة حسب الله التي لاحقته ها هو أب لبنات فقط، لا يجرؤ عاقل على الزواج منهن.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

مُرَاوداتُ الأبُوَّةِ

أرختِ الطبيبة الكرسي للخلف، طالبتْه أنْ يجعل رقبته مستقيمةً لأعلى، حاول أنْ يُلَبِّي أمرها، ولم يستطع، نسيتْ أنَّ حدبةً على ظهره لا تُمَكِّنُه مِن الاستقامة، أحنتْ ظهرها اليافع حتَّى بانتْ حدبة أعلى ساقيها. ابتسمتْ له، بدا شاردًا عن جمالها، دواخله تبتسم بسخرية مِن خيالاته في الجلسات السابقة؛ كيف راودته عن شيخوخته، وهي في عمر ابنته أو حفيدته؟! وهو الذي أنفق عمره مع امرأتين مِن ذوات الجوع، حتى موتهما لم ينسه أنَّه رجل مِن تراب وأمزجة متجددة، ولا سنوات القهر تحت أحكام عاطف. الآن وهو يستعيد قِطَعًا مِن شبابهِ يدرك أنَّ خيالاته لم تكن سوى نزق الشيخ السجين، وأنَّه لم ينظر إلى بخيتة إلَّا في يوم زواجهما، كيف فعلها مع هذه الطبيبة التي تمده بخُلاصة الشباب، وتصبها في عروقه اليابسة؟ خرجتْ مِن رأسه ذكريات بخيتة، في ذاك اليوم الذي خرج بها زوجةً مِن المحكمة. إحدى أعظم غرائبه أنَّه لم يكن يملك دارًا يصطحبها إليها، تذكر أنه يتشارك السكن مع مجموعة مِن العمال والسَّوَقة. بعد أنْ تَنَحَّى بها جانبًا على بعد خطوات مِن أبيها، أخبرها بحاله، وطالبها أنْ تذهب به إلى بيتهم؛ ابتسمتْ في وجهه بطريقة مُغرية، فكرة الزواج تروقها كما تفصح ملامحها. قالتْ بدلالٍ:

- مالك مستعجل! أصبر شهر مِن الليلة.

- شهر كامل؟!

Scanned by CamScanner

نظرتْ إلى فمه المفتوح بدهشة طفولية، أسنانه القوية المنضدة على لثته، ثم أردفتْ مع تمايل كتفيها:

- أجهز البيت، وأحضِّر نفسي؛ مش أنا عروسة؟!

- ست العروسات كلهن.

لم يفهم يومها معنى أنْ تُجَهِّز نفسها، في زيجته مِن بتول لم يتحاور معها، جهَّزْنَها نسوة المسيد بأمر الشيخ، ربما تجهيز المدن يختلف! نساء المدينة يأخذْنَ مِن كل شيء ويَصُغْنَ مِنه خليطا للجمال، أسرَّ في نفسه أنه سيُحْظَى بأيامٍ بديعة.

بعد شهر ومِن خلال حفل بهيج استلم بخيتة، في الحفل لم يتمكن مِن النظر إليها كما يَوَدُّ، طفلات الحي يرصدنه بعيون ماكرة. بخيتة ترتدي ثوبًا عاري الأكمام وفضفاض عند الخصر، بطنها المُتَكَوِّرة لا تظهر للعيان. في تلك اللحظة انتبه لبطن الطبيبة، فتح عينيه عليها، كانتْ مُنْتَصِبَة ترفع أدواتها، وتشمِّر ساعديها. بطن مستوية، تكاد تتقوَّس للداخل. صدرها يعلو ويهبط مِن جراء إجهادها في الفم العتيق. أحس أنَّها بريئة جدًا، تكاد تشبه مزيجًا مِن النساء في حياته، فيها مِن بتول، بخيتة، ورُقيّة، شعر أنَّها ابنته، وأنَّه ممتلئ بمحبتها، محبتها هي التي تضيء تجاعيده، ضمَّها بين جوانحه، وغرق في صمته. تَذَكُّر بخيتة وهي ترقص ناسية أنها حُبْلَى، تميد كغصن بان في يد الريح. قادتْه إلى غرفتهما بعد أنْ أشعلتْها بالبخور الحلو، أمسك ذراعها الممتلئة كردف صَبِيَّة، لحمها طري وقوي، جمعتْ النقائض في جسدها، والضعف والقوة في روحها. جلستْ تبكي وتتوسل إليه أنْ يسامحها، أنْ يقبلها بنقصها، مسح دموعها بكفِّه الخشنة، بدأتْ

Scanned by CamScanner

ترتجف، جسدها يرتعش كريشة في قبضة إعصار. حملها إلى الفراش، أرقدها بحنو. ثلاثة أيَّام يراوغها ويدللها لتقبل أنْ تفرج عن ساقيها، في الليلة الرابعة نامتْ بهدوء، أرختْ له مداخلها، فوجئ أنَّ عليه أنْ يطرق كثيرًا، وأنَّها تتألم أكثر. حاول أنْ ينجز فتوحاته برفق خوفًا على الجنين، نجح بمتعة عظيمة، وعبرتْ بمتعه وتوتر أقل. سألها بخجل:

- أنتِ فتاة؟

- نعم.. أنتَ جَرَّبتَ بنفسك!

سقطت دمعة على ردفها، وأخرى تجول على خدها، مسح الدمعة العلوية، أنزل رأسه ولعق دمعة ردفها. قال لها:

- وحكاية الفرَّان؟

- كانت مِن الخارج والله.

انتهتْ حواراتهما في ليلتها، صدَّقها رغم أنَّه لم يجد تفسيرًا لحدوث الحمل، كما لا يستطيع تفسير عودة الشباب إلى جسده، اهتمام الطبيبة الكبير به، تجاهُل عاطف له، ورحيل حسب الله المفاجئ!

لا شيء سيقوله وهو خارج مِن عند الطبيبة غير.. يا سبحان الله!

Scanned by CamScanner

(1)

الطريق يمتلئ بالفقراء وذوي العاهات، الغبار الأصفر يكسو ثياب المارة، بائعات الشاي والأطعمة البلدية مرميات تحت ظلال الأشجار. أقود سيارتي بهدوء، رأسي يكاد يغطس في رقبتي! لم يَتَغَيَّر شيء حتى بعد تدفق البترول، لم ينتهِ الفقر، هذا ما كنتُ أتصوره على الدوام؛ كيف لهؤلاء أنْ يتجاوزوا حالة الركود، وفقر الخيال؟! لولا بعض المشاريع هنا وهناك التي ينفذها رجال ناجحون لكانتْ حالة البلاد أشبه بوادي المَعَّاز، بشر يحملون فُرْشِهم ونسائهم للخلاء، فيما بعد يحملون أباريقهم لغسل فروجهم مِن فضلات الذُّرَة المتعفنة، يرسلون قهقهات سمجة إلى فضاء بليد. في الطريق تطرق كلمات أبي رأسي بعنف، هل كان عليه أنْ يقول لي.. "عايز الولد"؟ صحيح أَنَّنِي سألتُه عن سبب زواجه، وكان يمكن أنْ يقول لي إنَّه يريد أنْ يستأنس بزوجة، أو يقول أي عذر آخر، أو فليصمت. ابتسامة رُقيّة بمكر لحظتها تعني أنَّه قصد أنْ يطعنني بعبارته، يذكرني أنَّني بلا ولد، كل نصيبي مِن الحياة أربع بنات، سيقتسمن ثروتي، العقارات، الجامعة، والمستشفى، وربما تذهب أموالي وأصولي إلى أزوجهن، يضيع اسمي وجهدي سدى. ما يهم أبي أنْ يظل اسمه محفورًا في الحياة لأجيال قادمة، بلا نظرية تُدَرَّس، ولا كتب تُقْرَأ، كما لو أنَّه آينشتين يريد الخلود، ذلك الخلود المجانيّ! فقط لأنَّه أنسل امرأةً بلهاءً طفلاً معتوهًا.

Scanned by CamScanner

عَبَرْتُ أكداس الفقراء إلى بوابة مستوصفي الخاص، اللافتة المضيئة ترنو مِن علٍ (مستشفي العاطف التخصصي). هذه اللغة التي تعجب المرضى في حال فقرهم أو ثرائهم، ملأتُ البلاد بشراك اللافتات، بعثرتها في كُلِّ فج حزين، سيفد الحزانى بجيوب مملوءة بالمال، وسأكنزه اكتناز عزيزٍ جبَّار. لمحتُ إسكافيًا يجلس على رصيف المستشفى، أوعز لذكرياتي أنْ تدهمني بقسوة، ليس في هذا المكان؛ أرجوك! لا لن أرجوك، سأطردك مِن لوحتي، يجب أنْ تخرج مِن الإطار، يكفيني ما أنا فيه مِن انفجارات تدوي في أعماقي. وجدني واقفًا أمامه، بهيبتي وحذائي اللامع، حَدَّق في وجهي كأنَّه يتذكرني، أظنه شاهدني في التلفاز، وربما لو وقفتُ حياله أكثر سيحكي لي قصة مشاهدته لي، أعرف هذا النوع اللزج، قطعتُ ابتسامته مِن وجهه، انتهرتُه:

- قم وأمشي مِن هنا.

نَظَرَ إليَّ متوثِّب الملامح، حاول أنْ يفتح فمه بكلمة، ألجمتْهُ نظراتي؛ فبدأ يلملم أشياءه، ورأسه منكس إلى الأرض، جمعها بتوتر، التفتَ إليَّ وهو يعبر الرصيف، قال بفم مطبق:

- أنت حجر.. دين حجر!

- امشِ يا كلب.

طبيبة شابة كانتْ ستركب سيارتها وقفتْ تتابع المشهد، عيناها تدينان سلوكي، لا يهمني! غدًا سأفصلها، ولتجد لها وظيفة في مكان آخر. يحزنني ويوغر صدري افتقادي لابن؛ أمقتُ الشباب الذين يعيشون على هامش الحياة، ما جدوى أعمالهم اليدوية في عصرنا؟ ما جدوى انكسارهم في الأرصفة، ومجالستهم السمجة لبائعات الشاي، إنَّها

Scanned by CamScanner

إنداية على نحو جديد، منذ أنْ ألغينا المواخير، وحطَّمنا الخمور وهم يبتدعون طُرُقًا مختلفة للضلال والتيه. لو كان لي ابن سيكون مختلفًا بكل تأكيد، سأصوغه راشدًا منذ طفولته، لن أسمح له أنْ يعبث بحياته كيفما اتفق. عندما أخبرتْني أُمامة أنَّها حامل بأوَّل بطن لها خالطني شعور مزيج مِن الخوف والفرح، الخوف أكثر، مِن أيِّ شيءٍ لا أعرفُ، ولكنه قطعًا ليس خوفًا عليها، لم أحبها أبدًا، ولا أعرف كيف يحبُّ الرجل امرأةً تشاركه حياته، وتقتسم ماله وجهده؟ فقط زواجي مِنها كان عتبة لابد مِنها في سلم الترقي للنجاح. بدأنا نتابع منذ الأسابيع الأولى عند طبيبة أعرف أنَّها خبيرة، في كل يوم تزداد مخاوفي أكثر، أشعر أنَّ هذا الميلاد بقدر ما يعنيني كأب إلا أنَّه يضعني في مواجهة الأبوة، يفضحني أمام توجساتي الحبيسة، يتحتم عليَّ أنْ أتعايش معها، أنْ أقدَّم تجربة مختلفة كُلِّيًا عن أبوة لم أنعم بها. أجرتِ الطبيبة الفحوصات الروتينية، بدأتُ أتجاوز قلقي، ولكنها دفعتْني إليه بِكُلِّ جرأة، قالتْ بابتسار مُخِل:

- الجنين يعاني.

شعرتُ أنَّها تنصب فخًا لخبرٍ قاسٍ، قلتُ بهدوء وأنا أنظر لبطن أُمامة بثقة:

- يستعجل الميلاد؟

- لا.. يظهر عندي مصاب بمتلازمة داون.

جحظتْ عينا أُمامة، تواترتْ أنفاسها، وبدا لي أنَّ لعابًا يسيل مِن فمها ببلاهة نحو صدرها. وجهي تعفّر بصورة حسب الله، أصابعه الزائدة بإرادة السماء، شفاهه المغموسة في غدده اللعابية، شراسته

Scanned by CamScanner

في صدر أمي ونهمه المجنون. سيعود حسب الله لبيتي، يعود ليثأر لنفسه البلهاء؛ عليَّ ألَّا أسمح له بهزيمتي، سأقاومه، ربما لن أكون حَيًّا إذا نجح حسب الله في الحضور ضمن حياتي الجديدة، سيقول لي إنَّنا مِن طينة واحدة، وإنَّنِي لا أمتاز عنه في شيءٍ. الآن أبصر ما سيحدث لو كان مولودي الأول على شاكلته. ترجلتُ عن وجه أُمامة المدبوغ بالسوائل الفموية والأنفية، أَجلْتُ بصري في الطبيبة، رأيتُها تجلس بدون كرسي، مُعَلَّقَة في فضاء شيطانيّ، قلتُ لها:

- بسم الله! متأكدة أنتِ؟

- نعم.. يمكنك التأكد مِن غيري.

تَحَدَّثَتْ بالإنجليزية؛ لتشرح الأمر، نسيتُ أنَّنِي طبيب، لم أفهم كلمةً مما تقول، والأم الحالمة بطفل تهدهده، تفتح شفتيها بقبح متأصل فيها، وتُسَاقِط دموعًا غزيرة. خرجنا مِن المقابلة الروتينية؛ لنبحث عن مقابلات طارئة مع أطباء ذكور، وهذا ضد قناعتي بالطبع، رضخت لأُمامة تحت ضغطها وتلويحها بأَنَّنِي سأكون السبب في إنجاب الطفل المشوّه، دومًا تخفي وتبدي استعلاءً عليَّ حسب مزاجها، ورغباتها. كنتُ أحرص على عدم انكشاف جسدها أمام الطبيب؛ على الرغم مِن إدراكي أنَّها بعيدة عن الجمال والإثارة، أفعل ذلك كتقليد عليَّ الالتزام به فقط.

قلتُ لأُمامة: علينا التخلص مِن الجنين.

صرختْ: لا لا.. ولدي.

لن تقتنع بالعلم، ولا بنظريات حديثة مهما بذلتُ مِن جهد لإقناعها، تَمَسَّكَتْ به، قالتْ إنَّها تريده حتى لو خرج مُتَخَلِّفًا، ستخفيه عن

Scanned by CamScanner

الناس، فقط تريد أنْ تحتفظ به. في البدء ناقشتُها عن أعبائه التي سيلقيها علينا كزوجين حديثي عهد بالزواج، حدَّثْتُها عن فرصنا الأخرى في الإنجاب. لم ترضخ لمقترحي؛ فاضطرتْنِي أنْ أهددها بالطلاق لو أنَّها لم توافق؛ كانت تخشى أنْ تُسَمَّى مُطَلَّقة، أو تجلس على الرصيف في انتظار زوج قد لا يأتي. كنتُ شرسًا في إبعاد شبح حسب الله عن حياتي.

في الخفاء وبعيدًا عن أعين زملائي، ورقباء الحزب والأحزاب المعادية حَمَلْتُها على عربة أجرة إلى عشوائية طردونا، إلى قابلة غير قانونية، هي مَنْ ستُخَلِّصُنِي مِن هذا القيد الثقيل. عليَّ أنْ أتحمل الأمكنة الكريهة، منظر الأغنام تعلف الجرائد وكراتين البضائع، المشردين والمخمورين، كل القبح الذي يتمدد في الأَزِقَّة، وأنْ أتحمَّلَ سائق العربة الفضولي وعرقه النتن.

القابلة تشبه تلك التي جاء بها أبي إلى وادي المَعَّاز، خِفْتُ أنْ تكون سببًا في منحه الحياة، وأنْ ترفض رغم كل تحرياتي التي قمتُ بها عنها، طلبتْ مبلغًا كبيرًا، أكثر مِن مبلغها المعتاد حينما تُسْقِطُ أبناء الزنا، وافقتُ بلا تردد، ما أنتظره مِن العملية وسِرِّيتِها لا يُقَدَّر بثمن، ما أخشاه هو أنْ تتعرض أُمامة لمخاطر، كأنْ تموت بين يديها مثلاً! يومها سَيُفْتَضَح أمري، ويُقْضَى عليَّ، قد يشطبونني مِن نقابة الأطباء كأقل كارثة يمكن إلحاقها بي. ومِن ألطاف الله نجتْ أُمامة، ونجوتُ.

لم أشهد تلك اللحظات، خرجتُ إلى أكشاك النساء أرتشف الشاي والقهوة، تراودني صورة أمي مربوطة مِن يديها أعلى عيدان الراكوبة كأنَّها ستلقي بغائط مُتَجَمِّد في مصرانها منذ ألف عام. تراودني أحلام

Scanned by CamScanner

أنَّني يومًا ما سأنجب الابن المثالي، يشبهني ويُلَبِّي أحلامي، لا يشبه حسب الله في قاع النيل، أو بين الحور العين كما تزعم أمي. غاب حلمي، اندثر للأبد ما لم أتزوج مرة أخرى، ويبدو أنَّني أجبن مِن أنْ أفعلها، ها هو أبي يتحداني ويعلن أنَّه سيتزوج لأنه.. "عايز الولد". كأنَّه كُتِبَ عليَّ أنْ أتحدى أقداري بما فيها مِن أشباح الموتى والمُسِنين.

Scanned by CamScanner

(2)

وأنا بصحبة فريد مِن عاصمة إلى أخرى سئمتُ دور زوجة السفير، سئمتُ الحوارات الملساء والوجوه المُتَخَفِيَّة خلف اللياقة والبرتوكول؛ ربما استنفدتُ قدرتي على تأسيس المنظمات، ومؤانسة زوجات السفراء. أشتاق إلى بيوت الطين، ورائحة المطر، وعصافير المنازل التي تقتحم النوافذ؛ لتبني أعشاشها في شقوق الجدران، أشتاقُ لأبي وقدميه المتشققتين، تُرى كيف تمضي به الأيام مع عاطف؟! لو أنَّه مات؛ فلن يتبرع عاطف بإبلاغي، سيدفنه كعمود كهرباء ويعلق عليه وادي المَعَّاز وحسب الله. تلك الأيام ازدحم فيها جدول أعمال فريد، لم ينتبه إلى إرسال كارمن للبلاد؛ كي تبدأ دراستها الجامعية. انشغل بنذر الإدانات الدولية لحكومته، بدأتْ أوراق تجريمها تصل إلى لاهاي، كنتُ فَرِحَة بذلك، شغوفة إلى معاقبة قائمة طويلة مِمَّنْ كانوا يسمون ساسة، انتظرتُ أنْ يَرِد اسم عاطف، ولكن لم يحدث؛ جرائمه مِن النوع الذي يتَخَفَّى عن القانون، كنتُ أراه ونظراءه مِن أكابر الجُنَاة، وكان القانون أحمق وظاهريًّا جدًا.

بعد أنْ قرَّرَ فريد أنْ يبقى، وأنْ أذهب بكارمن للدراسة، بدأَ يتوتر لأتفه الأسباب، يخرج عن دبلوماسيته معي؛ كنتُ أتَحَفَّظ في الرد، يؤلمني أنَّنِي تركتُ حياتي، مقعدي كأستاذة في الجامعة التي أحببتُ؛ ليسوقني مِن جليد إلى صقيع، لكن سرعان ما أعفو عنه، لايزال في

Scanned by CamScanner

قلبي ذلك الحب القديم، شغفي إلى أحلامنا الأقدم، دائمًا أُطَبِّبُ له الخدوش التي أحدثتْها فيه وظيفتُهُ، أحسُّ أنَّه يعاني انفجارًا مدوّيًا في داخله، صراعًا محتدمًا بين ما كان يحلم به للناس، وكيف أنَّه تحوَّل مع الأيَّام إلى محض حلم شخصي، لا يتخطى رغبة موظف قتله الروتين في الحفاظ على وظيفته والترقي فيها. بينما أُجَهِّز في إجراءات السفر، كان يُجَهِّز أوراقه ودفاعاته عن الحكومة. عاد مِن الخارج وأنا أحزم حقيبتي، بدا متوترًا، ألقى بنفسه على المقعد، قال بصوتٍ مبحوح:

- سأذهب معكم؛ نقلوني للوزارة.

شعرتُ بسعادة عليَّ أنْ أكتمها، وقبل أنْ أسأله، قرأ سؤالي في عينيَّ، وأجابني:

- لأنهم لا يثقون فيَّ، أتوا بأهل الانتماء.

- أوغاد.. أعرفهم أنا.. لا تهتم.

حضنتُه بحنو؛ أعلم ذلك الطفل كم يحب أوروبا وأنساقها المتبرجة. ربَّتُ على كتفه كابنٍ عائدٍ مِن امتحان، لطالما تمنَّيْتُ أنْ يكون لي ولد، ولما لم يحدث وجدتُ نفسي اتخذ منه ابنًا لي، تَحَوَّرَ الحب مع مرور الأيَّام وصار ممتلئًا بحنو الأمهات، وصفتُه بأنَّه بطل، وأنَّ الواقع في السودان ليس بهذا السوء، ستكون فرصة؛ لتستكمل كتاباتك عن الفكر النقدي، وهكذا ركبنا الفراش تلك الليلة بإحساس وطني غامر، وفي الغد ركبنا الطائرة بإحساس عروسين.

عند وصولنا وجدتُ الحياة هنا تزداد سوءًا، لم يعد للخريف تلك الرائحة التي التصقت بأنفي، استوطن البعوض الغرف، وارتفع

Scanned by CamScanner

متوسط عمره لأَشْهُر، امتلأت الشوارع بالباعة المتجولين، نساء يفترشن الأرض، ورجال معاقة أطرافهم يبيعون على الأرصفة كل شيءٍ مِن الكتاب المدرسي وحتى الدولار. بدتْ لي البلاد كَبِرْكَة آسنة يسكنها بط، يجوس بمنقاره بحثًا في الماء وبين الطحالب عن شيءٍ يؤكل، لا يجده، ولكنه لا يكفُّ عن رشح فضلاته في الماء القذر. في أوَّل مشوار خرجتُ نحو أبي في قصر عاطف، أقصد سجنه الانفرادي إلا مِن عاملة أجنبية، في ذلك المكان تبدو الأشياء مُرَتَّبة، تنزع للجمال، ولكنها لا تستطيع خلقه، البيوت تتصدع مِن أساسها، ولا أحد يرى. الأنانية ترسم لوحتها الأوضح، حاجات الإنسان لا ترتبط بجاره، ولا بالدولة، تنبثق مِن جيوب القاطنين، وقدرتهم الشرائية، ومقدراتهم المهولة على تناسي كُلّ ما حولهم. دخلتُه لا هيَّابة ولا متدبرة في جماله، أبي هنا، تلك التجاعيد التي خاطتْ الكون وألبستْنِي له. قيل لي إنَّ عاطف في الجامعة قبل أنْ أسأل عنه، أُمامة تُنافقني لتكيد زوجها، تبدي لي احترامًا زائفًا في حضوره، وتختصرني بعيدًا عنه.

وجدتُ أبي صامدًا، ملتفًا على شيخوخته كشجرة هجليج طاعنة في الأرض، يتساقط اللالوب مِنها دون أنْ يجد صغارًا يمتصون خلاصته. انكفأتُ عليه أضم جسده المقاوم، حضنني بين أضلاعه، يَشُمُّنِي ويتحسسني كطفلة، انسكبتْ منه دمعةٌ وسقتْ قلبي، مسحتُها وأنا أذرف روحي في مَحَبَّتِهِ. تحدث إليَّ كثيرًا، يشتهي الحديث، رأيتُه يتعاطاه بقلبه، كُلّ جوارحه تتحدَّث، سجنه الصمت، وأسواره الوحدة! في بيتي بدأ يغرس جذوره في الحياة، يتمدد بتجاعيده في الفضاء، أطرافه الراعشة تحاول القبض على الزمن. حاولتُ أنْ أعينه بطرق

Scanned by CamScanner

مختلفة، تدليك أطرافه، ومسحه بمراهم تدر الدم في العروق، بدا لي مكتفيًا بالأنس معي، والسؤال عن كارمن وفريد، يدرك أنَّهما كل ما خرجتُ به مِن الاجتماع البشري على ظهر الكوكب. حفيدته لم تكن تستطيع التفاهم معه رغم وجود المسنين في المجتمع الأوروبي إلا أنهم بعيدين عن حياتنا، وفي الغالب يصنعون حياة تخصهم في دورهم. لم أقص لها شيئًا عن معاناته، لا أريد أنْ أشوِّه لها صورة المجتمع الذي ستقتحمه، وهي الآن في دهشة مِن التباين الذي أوقعتْها فيه تقلبات الحياة.

مع انشغالي بأبي تركتُ لفريد مسألة إيجاد مقعد جامعي لدراسة كارمن، ظلَّ يدور بسيارته، وفي مساحات علاقته القديمة؛ ليكتشف لنا أفضل موقع تنطلق منه خطواتها، عاد لي قائلاً:

- جامعة عاطف هي الأفضل.

- كيف؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم تكن لي بصيرة؛ لأرى السوء والأقدار الماحقة التي ستسحق كارمن هناك، وتحيلها إلى مسخ لا يشبه أحلامها، ولا ما كُنَّا نتمناه لها. انطمستْ بصيرتي وفريد يحدثني بطريقته في ابتداع المقدمات التي حتما ستفضي إلى رأيه الصواب.

- من ناحية طبقية ستنسجم كارمن مع هذا المجتمع.

- وماذا في الأمر لو اختلطتْ بالمجتمع واكتسبتْ، وتعلمتْ مِنه؟

- بالتدريج أفضل، الزج بها مباشرة خطر عليها.

انتهى الحوار لمصلحة رأيه المسبق، لم أعرف حتى الآن سبب إصراره على إيقاعها في هذا الفخ، أحيانًا أشعر أنَّه كان ينسج حبائل التواطؤ

Scanned by CamScanner

مع الواقع الجديد، يفتح نوافذه على الطفيليات التي عَلِقَتْ بالحياة، ويرسل إشارات للأشباح التي تتحكم في مصائر الناس مِن علٍ. لن أنحو باللوم عليه لوحده، أنا أتحمل القسط الأكبر بسكوتي، وسلبيتي تجاه ما أحسستُه مِن انفراط قوّته، كان عليَّ حتمًا أنْ أبوح برأيي، أنْ أشدَّ مِن عضده ليظل ثابتًا كما عهدتُه واخترتُه يافعًا؛ لماذا يفعل بنا تَقَدُّمُ السِنِّ هذا الانحراف الحاد وغير المرئي؟ ذهبتْ ابنتنا الوحيدة إلى الجامعة خلو مِن خبرات الحياة على هذه الأرض، ذهبتْ كشتلة مِن مناخ بارد غرستها الأيادي الجاهلة في أرض المدارين. كُلُّ ما طلبته مِن زوجي أنْ يتمَّ قبولها بالطريقة القانونية، وبدون مساعدة عاطف، أنْ ندفع رسومها الدراسية كاملة دون مِنَّة مِن أخي. عدَّ فريد كلامي تنازلاً كبيرًا مِنِّي، ومضى عليه. كنتُ فريسة لمحاولات تثبيت أقدام صغيرتي في أرضها كأم تحمل صغارها إلى مكان آمن دون أنْ ترى مخالب الوحوش تمتد في الليل، منشغلة أيضًا بإعادة أبي للحياة، والتمتع بصحبته لأطول فترة زمنية.

ذهبتْ كارمن في يومها الأوَّل بالجامعة مع أبيها، وخرجتُ بأبي إلى الطبيبة في يومه الأوَّل مِن بدء العلاج. رنَّ هاتفي عند العاشرة صباحًا، لم أتعرف على صاحب الرقم، دهمني الصوت المتكسر، المخربش كمرآة قديمة وعكتْها الأيادي المتسخة

- حمدًا لله على السلامة.. البلد ترحب بكم.

- أهلاً عاطف.. معذرة.. أخذت أبي.

وقبل أنْ أكمل ما أود الاعتذار عنه قال لي:

- الأمورة شرفتنا، جامعتنا نعم الاختيار.

Scanned by CamScanner

لا يريد أنْ يتحدث عن أبي؛ الأمر لا يزعجه كما توقعتُ، لا يهتم بكونه بعيدًا عنه. يريد أنْ يزهو بجامعته، لابد أنَّه يمشي الآن كطاؤوس، يكاد يلامسني ريشه مِن خلال الهاتف. سأحرص أنْ أقول كلمات يفهم منها أنَّني لم أزل تلك الطالبة العنيدة، المُنْحَازة إلى أعدائه:

- اضطررنا إلى الجامعات الخاصة بعد أنْ تحطَّمتْ الجامعات الحكومية.

- حطَّمها التكلس، الروتين.

- لا يهم ما يقال، المهم أنْ نتسق مع ما نقول.

كادتْ مكالمتنا أنْ تنتهي إلى مشاجرة؛ لولا أنَّني اختصرتها بعد أنْ قال لي إنَّه قابل فريد وكارمن في مكتب المسجل بالصدفة، قلتُ الصدفة هي التي تقودنا أحيانًا، وفي غالب الأحوال نمضي إلى أقدارنا بأرجلنا. قلتُ كلمات أخرى لا معنى لها سوى رغبتي في الخروج عن أية مُعَاركة متوقعة والانصراف إلى جلسة أبي. حين أغلقتُ هاتفي كانتْ الطبيبة تمازح أبي، وأنا أحاول أنْ أنسى توتري.

Scanned by CamScanner

ما لم يفهمه المسن

لم يعد ينشغل باشتهاء الطبيبة، كَمُنَتْ تلك الخواطر الرعناء، حلَّ محلها إشفاقٌ عليها، وأحيانًا إعجابٌ ببراعتها في معالجة الفم. تساءل لماذا لم تتزوَّج حتى الآن؟ يبدو وجهها قد تجاوز الثلاثين، هل تعليمها المفرط شرَّد عنها الرجال، أم أنَّها تصبو إلى زوج مِن نوع متفرد؟ أغمض عينيه وهو يشعر بوخزٍ في قلبه: حصائد الزواج ليست دائمًا جَيِّدة، لياليه الدافئة تُنْسَى مع تقدم الأيَّام، يتحول الأبناء إلى أطياف واهنة تحاول أنْ تظهر حتى لو اختفى العالم عن الأسلاف. ماذا ربح هو مِن زيجتيه، عظامه تتطمس في جلده، وحدته تغوص في ليل الأطياف المتصارعة بجنون، أتعس الأزواج هم مَن يعيشون إلى أرذل اللحظات، يرون الأبناء والأحفاد في مآزقهم؛ ولا يستطيعون أنْ يحركوا ألسنتهم لنجدتهم.

الموت رغم إيلامه، لكنه يختصر طريق المعاناة؛ بدا له خيط الموت كَحَبَّات مسبحة اللالوب، ينتظم في حلقته كل الذين رحلوا وتركوه يعالج أسنانه وتجاعيده، لماذا عليه أنْ يأكل، يبتسم، وأنْ يتحَمَّل ذاكرته الهرمة بكل فظائعها؟ بتول أسلمتْ روحها غبنًا على حسب الله الذي لم يجدوا جثمانه أبدًا، بخيتة أصابها سحائي المدينة المزدحمة بالغبار النجس، فقدتْ حواسها واحدة فأخرى حتى أخذتْها شهقة الموت، شيخه الذي أسلكه الطريقة وزوَّجه مِن بتول مات قبل أنْ

Scanned by CamScanner

يعبر البحر إلى مكة، دفنوه في أرض لا يعرف أحد كيف يزورها. الحياة تختار لنا الطريقة المثلى لمغادرتها؛ تعجّب لماذا تراوغه حتّى الآن؛ هل عليه أنْ يتآكل كقطعة حديد صدئة ينخرها الزمن ورطوبة الوحدة. تذكّر أخاه حسنين بوجهه الضحّاك، يديه الخشنتين، أصابعه ضخمة ومخروطية كشأن أيّ مُزارع. قضى حياته يحلم بأنْ يجمع المال؛ ليتزوج ابنة أحد الأثرياء، شاهدها وهي ترعى قطيعًا ضخمًا من الأغنام، تودد إليها فابتسمتْ له، يلتقيان في كبري الترعة، يتبادلان الهمس والنظرات، يبتسمان عند اللقاء والفراق. وعدها أنْ يجمع مالاً يكفيهما؛ ليتفرغا لبعضهما مدى الحياة. لابد أنّه لم يكن يرى أولئك البشر، يجلسون في الخفاء، لهم مقدرة فائقة على التحكم في مصائر إخوتهم المرئيين. كان حالمًا حتّى أُجْهِزَ عليه حلمه؛ تُرى أين ذهبتْ تلك الفتاة؟ ربما ماتتْ، أو صارتْ جَدَّة يعافها الحَفَدة!

ذهب حسنين؛ ليعمل في زراعة القطن بمشروع جودة، القطن نجح في الجزيرة وغيّر في حياة الناس، الإنجليز أخذوا كفايتهم مِنه وغادروا البلاد. بدأتْ الحكومة الوطنية للتو تتحدث، وتبشر بالحياة القادمة. لم يعد السكان يخافون صولة المفتش الإنجليزي، أغوتْهُم الأحلام التي صاغها بنو جلدتهم. في جودة أضرب المزارعون مطالبين بنصيبهم مِن بيع الأقطان، احتجّوا وفي بالهم ألا صَلَف بعد ميلاد دولتهم، هاج أناس الخفاء، استكثروا عليهم حق المطالبة والتعبير عن الاحتجاج. فُوجِئَ حسنين بالشرطة تُطوّقهم، تضربهم بقسوة، رأى حلمه بالعودة إلى موعودته بالزواج تصطاده بنادق العسكر؛ قرر أنْ يصمد ويدافع حتى الرمق الأخير. تمّ حَشْره في عربة كومر مِن بقايا دولة الإنجليز،

Scanned by CamScanner

تكدّس مع رفاقه كأنّهم شحنة طماطم، في كوستي قذفوا بهم دفعة واحدة في هنكر مُعَد لتخزين معدات الجيش، أغلقوا عليهم الأبواب، أوصدوها بعرباتهم الثقيلة. انقطع عنهم الهواء، كلما حَمِيَتْ درجة الحرارة استعر الحديد مِن تحتهم ومِن فوقهم، تأكد له أنَّها صيحته الأخيرة، وأنَّ أُنسه في كبري الترعة لن يعود مَرَّة أخرى. ترك الصرماتي أحذية الزبائن، لم يكن يعتقد أنَّ مِن بينهم مَن خطط أو شارك في قتل أخيه، رغم ذلك امتنع عن إصلاح أحذية العساكر منذ تلك الأيَّام، ترك رزقه وذهب إلى كوستي ليدفن جثمان حسنين، أحزنه أنَّه لم يجد أيًّا مِن جثامين الموتى! لملم أطرافه وعاد مهزومًا، تملؤه الأسئلة التي لا يعرف لها إجابات. تعود به الذكريات الآن وهو مازال يتشبث بالحياة، تسقط دمعة على خده، لمحتْها الطبيبة رغم اجتهاده في مسحها بسرعة، لكن يديه العريقتين أبطأ مِن نظرها الغض.

ماذا لو أنَّه تزوّج إنابة عن أخيه؟! بدأ يفكر.. في تلك الأيام إذا مات شاب قبل زواجه كانوا يصنعون له كُلَّ طقوس الزواج، مِن حِنّاء وجرتق، حتى هذا الشرف الرمزي لم يحْظَ به جثمان حسنين! لن يُصَدِّق أحد أنَّه ينوي الزواج إنابة عن ميِّت، ربما عظامه اختفتْ مِن تربته، ولكن الكثيرين يؤمنون بالحج بالإنابة وإهداء العبادات، الزواج نصف الدين؛ أليس في ذلك نوعًا مِن العبادة؟ لن يحكي لرُقيَّة عن عمّها الذي لم تسمع به مِن قبل، ولا عن نيته التي أضمرها، سيقول إنَّه يَوَدُّ الزواج فقط كأي رجل في هذا العالم. يعلم أنَّ زيجاته السابقة لم تكن ثمارها مباركة، ولم تكن كلها تالفة، ولكن ثمة شيء غائب عليه أنْ يجده حتى لو تبقّتْ له أيَّامٌ معدودات، عليه ألَّا

Scanned by CamScanner

يبحث عن تفسير.. فقط عليه السعي، ثم بدأ يتمتم بآيات قرآنية
لاحظتْ الطبيبة أنَّها مَحْشُوَّة بالأخطاء النحوية، سكتتْ ولم تصححه
وهي تُسر في نفسها أنَّ الله سيقبل مِنه كُلَّ قول.

Scanned by CamScanner

(1)

رغم صلواتي المتتالية إلا أنَّني كثير الشك، ممتلئ بالهواجس، أشكُّ تحديدًا في اليوم الآخر، زادتْ شكوكي عندما سمعتُ الزعيم المفكر يشكك في تفاصيل تخصُّه، ثم ينفي عذاب القبر. ما أهرب مِنه هو اليوم الآخر، أتمَنَّى أنْ تنتهي الحياة على هذه الدار؛ وليأخذ الناجحون نصيبهم فيها غير متطلعين إلى غيرها، وبعيدًا عن دعوات التعساء وخائبي الرجاء. نضجتُ، بل شِخْتُ ولم أزل مؤمنًا بالله القدير، إلا أنَّني لا أرى حوجة لإنجاز يوم لعدالة رمزية ذات طابع اشتراكي. لم أستطع إلغاء التناقض بين إيماني بالله وكفري باليوم الآخر؛ لذلك كففتُ عن التفكير في الأمر، اهتممتُ بثروتي، بناتي وزوجتي غير الجميلة. أكثر مِن مرَّة حاولتُ أنْ أتزوَّج عليها، ولكنها كانتْ تتربص بي، حينما تكتشفُ خططي تدهسها بقسوة، تُذكِّرني أنَّها ابنة الأماجد، سليلة أشراف المجتمع وأنَّه ما كان لي أنْ أحصل على حذائها لولا أنْ تقدَّم لأسرتها الزعيم بنفسه. أقف عند كلمة (حذائها) أصنع معركة حولها، ماذا تقصدين؟ أنا أحد علماء البلاد، لم تنجب أسرتك شخصًا في مستوى ذكائي أو مكانتي الاجتماعية. أظلُّ في لغط أندبُ نفسي بينما تذهب هي عني في هدوء.. تتشاغل بزينتها التي لا أبصرها أمامي.

في جلسات أُنسه معنا يُحَفِّزنا الزعيم على أمرين، يجعل التحريض كمزاح ولكنه يعرف قدرته على التأثير، يُوَجِّهُنا إلى التودد لصغار ضباط الجيش وكسبهم إلى صفِّنا، وإلى مصاهرة الأُسَر العريقة ذات

Scanned by CamScanner

التأثير. كنتُ أكرهُ الأمرين، قلبي يستثقل حياة العسكر وأفقها المحدود، وسيرتي الأسرية لا تقدمني لبنات مِن البرج العاجي؛ مع ذلك كنتُ أجيء على خاطري، أبتسم، وأرسل إشارات بمقدرتي على تنفيذ الأمرين. بذكائه كان يدرك ما أعانيه؛ اقترح لي أُمامة، قال إنَّه سيطلبها لي حال موافقتي عليها. لم يكن بمقدوري أنْ أرفض عرضًا يقدِّمه لي؛ أدركتُ في وقت مبكر أنَّه مَن سيحملني إلى الثراء، وعلى يديه يتحقق يقيني بدينونة الأرض. وهو يتحدثُ تذكّرتُ مدير المدرسة الذي اقتسم معي مِنْحَة المفتش الإنجليزي؛ أعلم أنَّه عندما يصنع نجاحي سيقتسم معي شيئًا ما، وعلى نحو ما. شَرَعَ يحكي لي عن أسرة المرشحة، أبوها زعيم عشائري كبير كان له دور عظيم في طرد الإنجليز، بل إنَّ جَدَّها نافح الأتراك، وهزمهم في المديرية، وفوق ذاك فهي أسرة متدينة، عُرِفتْ بالزهد والورع. كان عليَّ أنْ أهتف بلساني (الله أكبر) هذه مواصفات الأسر التي انتخبها المستعمر للتعليم المدني؛ هذا يعني أنَّهم نافذون، وأثرياء جِدًّا. لم أهتف بشيء؛ عقلي كان منشغلاً بمستوى جمال الفتاة، مازلتُ شابًّا أطمع في أنثى جذّابة تروي عطشي للحياة الدافئة، يبدو أنَّ مُفَكِّرِي قد تجاوز هذه الأباطيل فلم يذكر لي عنها ما يشير إلى حسنها.

يوم أنْ دخلتُ بها، وانزاحتْ مساحيق الزواج؛ تأكد لي أنَّني أخذتُ البضاعة البائرة. ملامحها لم تكن تنم عن حُسْنٍ ظاهر أو مستتر، ناضبة الثديين، جاحظة العينين، وأسخف ما فيها نحول ساقيها، دائمًا ما كنتُ أتَوَلَّه في السيقان الممتلئة لزميلاتي، هذا العشق ورثتُه عن أمي، ساقها كساق شجرة مُعَمِّرة، طالما تلصصتُ على أبي وهو ينعم

Scanned by CamScanner

بهما. ليس لأُمامة غير شعرها الطويل، وبشرتها الفاقعة كصفار بيض الدجاج البلدي. مُزَاوَجة لونها مع لوني الذي يشبه لون قرد الطلح أنتج لنا بنات شهباوات مِن أعلى الجبين وحتى شعورهن. أراحني الزعيم مِن استصحاب أبي، ذهبنا بصحبته وبعض الإخوان، وحدث الزواج بذات الطريقة التي تزوَّج بها أبي، هو أكثر حظًا مِنِّي؛ لأنَّ أمي كانتْ حسناء المسيد، هذه لا تساوي شحمة في أذنها.

اكتفيتُ بغنائمي المجتمعية مِن زيجتي، علَّمَتْنِي كيف أربط الكرافتة، أرتب أشيائي الخاصة في المنزل، عَلَّمَتْنِي التلذذ بالأكلات الحديثة، أخفقتُ بِشِدَّة في تزجية شهواتي نحو نهاياتها. كنتُ سأستمر معها لوحدها لو أنَّها نجحتْ في إنجاب ولد؛ لأصوغه كما أَتمنَّى! بعد محاولاتها الفاشلة في إعادة حسب الله إلى حياتي مِن بطنها صِرْتُ أخشاها.ولا أرجو تكوَّر بطنها، بدأتُ أستسر العشيقات بعد إجهاضها، وكأنَّها تعاقبني بطرف خفي بدأتْ تنجب لي في البنات. أوَّل عشيقاتي كانتْ العاملة في مكتبي، تلتها بائعة الشاي، كنتُ ألوم نفسي على الاحتكاك مَرَّة أخرى بحضيض الحياة، حين تهزمني شهوتي أعود إليهن مكسور الجناح، ثم جاءتْ سكرتيرة حسناء، حسب وظيفتي بالجامعة تعلَّمْتُ عليها استغلال النفوذ لأغراض المتعة. الآن وبعد كل هذه السنوات تأكَّد لي أنَّنِي لن أُقْدِمَ على زواجٍ آخر؛ فقط سأركن أعدادًا معتبرة مِن الحسان خلف ستارة مكتبي، سأتسلى بهنَّ حتى موتي وانقضاء دنيتي.

زارتْني كارمن في مكتبي في أسبوعها الأوَّل بالجامعة، انطلقتْ نحو حضني الذي تتوسم فيه دفء الخال، أشعلتْه كأنَّه حِفْنَة حطب

Scanned by CamScanner

يابس، الحريق المتقد في جسدي عزّز فكرتي في أنها ليست عقيدة الصوملي؛ إذ لا يمكنني بأي وضع أنْ أفكّر في تجاوز محارم الله لهذه الدرجة، لستُ على هذا القدر من السوء لأشتهيها؛ ولكن قطعًا زكيّة ليست أختي، هي بنت السفاح التي تبنّاها أبي لحظة شهامة أمام القاضي. أبصرتُ في كارمن ملامح بنات أوروبا اللاتي فشلتُ في التواصل معهنَّ إبان ابتعاثي للدراسة. ترتدي بنطال الجينز غامق اللون، ترسل شعرها بحُرّيّة، يلتفّ حيثما شاء، شفتاها دقيقتان، نابضتان بالحسّ، صدرها يوسوس بالشهوة كإبليس خالد في الخطيئة، تتحدث بكل جوارحها، ليست مكبلة كبناتي شهب المنازل. لم تشعر ذلك اليوم بنزوعي المريب نحوها، بعدما تكررت زياراتها أخبرتُها ألّا تُحدّث أمها عن زياراتها لي؛ عقدتْ حاجبيها بإغواء، ظننتُ أنها تقصده، تحركتْ نحوها كقطّ مُتربص، بدأتُ أحادثها في مواضيع مفصلة وأتقرب منها، بعد نصف ساعة حاولتُ أنْ أطوّقها بين يدي، مددتُهما نحوها، بُهِتَتْ فحسبتُها راضخة، وأنها ستعوضني عن بنات أوروبا الضائعات، أرخيتُ وجهي نحوها، وشفتاي مشرعتان؛ لأغترف مِن نبعها، بسرعة مباغتة دفعتْني بكلتا يديها، وقفتْ متوثبة. نظرتْ إليّ كأنّها تصفعني بعينيها، ثم خرجتْ تعدو، صفعتْ الباب خلفها بقوة. لو أنها توغّلتْ معي قليلاً؛ لشرحتُ لها أنّني لستُ خالها، وأنّني لستُ بهذا السوء! توقّعتُ أنْ تبدأ معركة شرسة مع زكيّة، بعد أنْ تقُصّ عليها ابنتها ما حدث، توقّعتُ أيضًا أنها ستحوّل المعركة إلى قضية رأي عام، ستفتح ملف التحرش بالجامعات، وتَحَسُّبًا لهذه الأجواء قررتُ أنْ أفتح ملف نسبها، أنْ أهدّدها بأنّها مُجرّد لقيطة، وأنْ أدفع بها لاختبار الحمض

Scanned by CamScanner

النووي، هذا الكارت الأخير وسيهزمهما تمامًا. لم يحدث ما توقعته يبدو أنَّ ابنتها لم تحدِّثها بما وقع، ربما دخلتْ عليها حزينة منكسرة، وعندما سألتْها عن السبب ادَّعتْ أي شيءٍ آخر. رَجَّحْتُ هذا الاحتمال؛ إذْ إنَّها تتصوَّر أنَّها ابنة أختي، ستصاب بصدمة بالغة، وستحاول أنْ تعالج نفسها بعيدًا عن أمها؛ حتى لا تسبب لها إحراجًا، أو تَصَدُّعًا في علاقتها بأخيها المُتَخَيَّل. اطمأن قلبي، عدتُ أمارس حياتي بصورتها المعتادة رغم أنَّنِي صرتُ أصطاد الفتيات اللائي يشبهن كارمن.

بعد مرور شهر وحينما كنتُ أستلم التقرير الدوري مِن مسؤول الأمن بالجامعة لاحظتُ ورود اسمها ضمن مجموعة تمارس النشاط الدعوي السلفي، يتزعم المجموعة طالب أجنبي. طالبتُ بتقريرٍ وافٍ عنها؛ فعرفتُ أنَّها اختفتْ خلف النقاب، تحوَّلتْ إلى فتاة مُتَشَدِّدَة للغاية. تساءلتُ في نفسي هل أنا سبب لسوقها في هذا الاتجاه دون أنْ أقصد، كما كنتُ سببًا في غَرَق حسب الله دون أنْ أقصد، ومِن ثَمَّ موت أمي؟ لا أظنُّ! هم مَن وضعوا أنفسهم في هذه المزالق، أما أنا فقد كنتُ صادقًا مع نفسي، تطلعاتي، ونزعاتي. على كُلٍّ سأضع الفتاة تحت المراقبة اللصيقة؛ فهي تُمَثِّل مصدرَ خطرٍ على سمعتي، وحياتي المصنوعة بكفاحٍ شاق، ولابد أنَّها الآن تحتقرني، وتعتبرني مُجرمًا تافهًا.

Scanned by CamScanner

(2)

لم يعد العالم يستر عورة أحد انكشفتْ لِمَرَّةٍ واحدة، لم يعد يأبه بخدوش الروح التي أنهكتْهَا الحملات الدعائية. عليَّ أنْ أتوَضَّأ لصلوات حزينة قادمة، أحمل أباريقي المملوءة بغربتي التي استوطنتْ عظامي. لسنواتٍ وأنا أراقب فريد وهو يخونني مع الشقراوات، يجرح قلبي، يحيله إلى قلب أنثى لم تناضل يومًا لأجل الإنسان، أنثى تفهم أنَّ الرجل (كلب) يفعل ما يشاء ويعود غانمًا إلى بيته بكامل الكلبية؛ هكذا تقنعها نساء الأسرة الممتدة في غابة مِن البرود تسحق كل حرارة العروق، هكذا عليها أنْ تقبل! وأنا أيضًا تَقَبَّلْتُ بعد أنْ أكدتْ تحرياتي وقائع خياناته المتكررة. انتبهتُ إلى أنَّه يختار نساء العِرْق الأبيض فقط، كأنَّه يعيد تجارب المتعلمين الأوائل، يستدعي شخصيات قرأ عنها. أسأل نفسي لماذا بعد كل هذه السنوات مِن الكفاح الثنائي؟ لماذا أعماقه تدفن أحاسيس متناقضة؟ بينما ينتقد علم الإنثربولوجيا ويصفه كعلم استعماري؛ يقع بسهولة في أحضانهن كأنَّه يبحث عن مناجم علوم لَدُنِيَّة؟

قرار نقله للسودان أسعدني، بل تَمَنَيَّتُ أنْ يُحَال للصالح العام؛ وظيفته هي سبب كتابته المتناقضة، يحاول دائمًا الاستجابة لمقعد الوظيفة على حساب الكلمة، صحيح أنَّه ظلَّ يحتفظ بمسافة معقولة مِن مشروع السلطات النظري.. لكنها مساحة للمناورة والمزايدة، لم تعد مساحةً للجسارة مِن أجل فكرة.. أو انحيازًا للفقراء كما كنا ننادي

Scanned by CamScanner

ونهتف. أنا لا أُبَرِّئُ نفسي مما آل إليه، ربما كنتُ باردة في تلك الأراضي التي ساقني إليها، لم أعد بذات الجسد الساخن والجامح، جذوري التي تسقيني عجزتْ أنْ تمتد أعمق، بدأت أهتمُّ بكارمن وشؤونها اليومية خصمًا على حياتي كزوجة عاشقة، ولكن هذا لا يعفيه، لا يبرر له أفاعيله؛ إذْ كان بإمكانه على الدوام مساعدتي في الخروج مِن هذه الحالة، ولكنه اكتفي بالنظر إليَّ وأنا أتدحرج في بوار الحياة، وجدب الأنوثة، واستعاض عني بمغامراته البيضاء. ها قد عدنا للديار، أحمل في قلبي خيباتي هناك، يحمل ما حطَّ عليه مِن تشويش. أُمَنِّى قلبي بنبضٍ جديد، قلبي قد غفر ما سلف في بلاد الجليد، ليس غفرانًا تبعًا لنظرية الكلب فعَّال ما يشاء، ولكنه غفران مَن رأى ببصيرته مَحَاق الأيَّام، وتبدلات البشر بِمَنْ فيهم شخصه. أُمَنِّي بيتي بحياةٍ يصطخب فيها الحبُّ بالجرأة، بحكمة أبي وطموح كارمن، تلك أمانيَّ التي عدتُ لأزرعها على أرضي وفي المناخ الذي يشبهني، ما كنتُ أدري أنَّ خلف الأكمة يَكْمُنُ لصوص الأمنيات، أنَّ أرضي كسائر الكوكب يمكنُ أنْ تُنْبِتَ لي أحداثًا غير سارة.

لم نكن نمنح كارمن ما يكفي لتعرف مَن نحن؟ في الغرب تركناها للمدارس، حجبنا عنها معارف الحياة المكتسبة، فريد لم يكن ليقبل أنْ تتورَّط في حياة الغربيين تمامًا، ولم يكن يستطيع أنْ يعكس لها حياة وطنها. أنا اكتفيتُ بأنَّها تُجيد العربية، ولهجتنا الموغلة في المحلية، مُنذ أن كانتْ صغيرة أطرب لاستخدامها بعض المفردات المحلية بطريقة طريفة. أتصوَّر أنَّ الصخب في حياتنا له عنصران متناقضان، شابة يافعة، ومُسِن توَّاق للحياة، إنَّهما كنزنا.. بهما سنستعيد أنا

Scanned by CamScanner

وفريد بعض أحلامنا. حقًّا تمنَّيتُ لها أنْ تدرس في جامعتي، أنْ تجلس في ذات الأمكنة التي عشتُ أجمل أوقاتي بها، بالطبع أنْ تلتصق بما كنتُ أفكر فيه، بالأحرى أنْ تستكمله، وألّا تأخذ مساراتي وانكساراتي، خاصةً أنّه لا شيء قد تَغَيَّر. فريد أفحمني وزجَّ بها إلى عاطف.. سألتُها:

- كيف الجامعة؟

- فاين.

ابتسمتْ، ألقتْ بحقيبتها، وبلا اكتراث شرعتْ في خلع بنطالها. هل هذا كل ما أوحتْ به الجامعةُ إليها؟ استفقتُ على شسوع الاختلاف بين تجربتينا، أَرْخَتْ جسدها وبدأتْ تتحدَّث عن عدد الطلاب والطالبات الذين يملكون سيارات خاصة، وأنَّها ما كانت لتتخيل أنَّ بلدًا فقيرًا كهذا يحوي كَمًّا مَهُولاً مِن السيارات والأناس المُرَفَّهِين. أعلم أنَّها لا تفكر في امتلاك سيارة خاصة، وأنَّها ستصادف اندهاشًا كثيفًا في مقبل الأيام. قررتُ أنْ أكون قريبة جدًا منها، سأقوم بإيصالها للجامعة كُلّ يوم حتى ينقشع عنها الاندهاش، سأوصيها جيِّدًا؛ فحسب خبرتي أنَّ الطلاب الوافدين يقعون في غيبوبة مع أوّل مجموعة يلتحمون بها، لا يعرفون قواعد الاجتماع هنا، وما فيه مِن مزالق يمكن أنْ تصحبهم لبقية حياتهم.

في ذاك اليوم عادتْ باكية، حَبَسَتْ نفسها في الغرفة لا تحادثُ أحدًا، هو اليوم المفصلي في مسيرتها، بعده انحدرتْ بسرعة هائلة في هُوَّةِ العدم. لم أعرف ما حدث لها، ماذا صادفتْ في دربها؟ كنتُ أتوقع أنَّها في حالة مصادفتها لمشكلةٍ ما ستحاول حلّها وفق طريقة تفكيرها الغربية الممتزجة بقواعد القيم السودانية، وأنَّها عندما لا تستطيع

Scanned by CamScanner

ستلجأ إليَّ، أنا أمها، حضنها الدفيء! بيد أنَّها لم تفعل، غرقتْ في لُجَّةٍ مِن تيهها الخاص، ثم خرجتْ إلى الناس مُرْتَدِيةً النقاب، حاولتُ كفَّها عنه، قلتُ إنَّه لا يُعَبِّرُ عن ثقافتنا، وهو وافد مِن نمط تديُّن مختلف، وأنَّه لا يحمي المرأة مِن الأطماع والتحرش. وكأنَّ شخصًا ما يقبع في الخفاء يمدها بالحجج ويملأ رأسها بالأباطيل، تقول لي:

- الإسلام هو الحل.

- نعم فيه حلول، ولكن بعد أنْ نفهمه جَيِّدًا.

- كُلَّمَا فهمتُ منه جزءًا، أُنفذه على نفسي.

- بالتجزئة لن تفهمي شيئًا.

حواراتنا تنتهي إلى طرق مسدودة، لم تعد كارمن تلك الشابة المفعمة بالحياة، تضجُّ بالصخب والأمل، شعرتُ أنَّ وطني بطريقة ما بدأ يسلبني إياها. ليس لي أحد غير فريد يمكن أنْ يساعدني في استعادتها. التغيير في شخصيتها أبعدها عن أبي، لم تعد تجلس إليه وتمازحه، كُلُّ وقتها تصلي أو تجمح بخيالها ترعى غنم إبليسها. أبي لاحظ ما حطَّ بها، قال لي "كل ابن آدم ياخد نصيبه مِن الدنيا؛ تابعي بنتك يا رُقية". تأكد لي أنَّها تمر بأزمة عنيفة، حدس أبي لا يخادع. استجرتُ من ناري برمضاء فريد، شرحتُ له التحولات التي عاينتُها على كارمن، قلقي مِن أنْ تنتهي بها إلى نتائج محزنة؛ قال:

- تحولات عادية، هي تحاول الانسجام؛ وحتمًا ستجد في النهاية ما يناسبها.

- قررت أنْ تتنقّب يا فريد.

- دعيها تجرِّب؛ أيَّام وستتركه.

Scanned by CamScanner

أصابني بروده بخيبة، كنتُ أوَدُّ أنْ ألمس حرارته في الدفاع عن صغيرتنا الوحيدة، لا أنْ أرى استسلامه لعصف الأقدار بها. لم تمضِ أيَّام معدودة حتى رأيتُها في عُمق محبسها الأليم، صارتْ لا تصافح الرجال، تُحَرِّم الموسيقى، تَدُسُّ رأسها في كتب مِن عصور سحيقة، وتَدُسُّهَا مِنِّي كلما ضبطتُها تقرأ. بعد أنْ هربتْ بيوم سألني عنها أبي، يقول لي كيف سمحتم لها بالضياع، كُنَّا نصون الصغيرات والكبيرات معًا، يسألني أبي بلغة الجَدِّ وإحساسه؛ فأبكي وأحار جوابًا، لا أعرف ذلك المنزلق الذي تدحرجتْ مِنه قدماها. عاطف يبدو مرتعدًا وهو ينكر صلته بما حدث لها، ولكنه لا ينسى لؤمه في دفع الاتهامات عنه.

Scanned by CamScanner

المنتمي

جلس على كرسي القماش، ظهره يرتسم على الكرسي بمرونة، مفاصله لدنة مُفْعَمة بالحياة، جذوره على الأرض مُغْدَقَة، ورأسه يرنو إلى السماء. تعوَّد أنْ يجلس في الحديقة بعد أداء صلاته، يستنشق هواءً برائحة النباتات المنزلية مخلوطة مع روائح أراضٍ غادرها منذ عقود. منذ أنْ توقف عن جلسات الطبيبة بعد أنْ عاد فمه يمضغ ويبتسم بجرأة؛ استبدل تلك الجلسة بالحديقة، وبكرسي القماش. يستمتع بمشاهدة حفيدته تخفق بين أضلاعه كفراشة تائهة، ومغالطة فريد في تاريخ السودان الحديث. يتمنى أنْ يفهم سبب قلق ابنته، نحولها الذي يزيد يومًا بعد يومٍ، ولكنه يعجز، وهي لا تَوَدُّ أنْ تقحمه في عذابٍ قد لا يطيقه.

عادت إليه بالخبر السعيد بعد أنْ غابت نهارًا كاملاً، أخبرته أنَّ المرأة وافقت على الزواج منه، وأنَّ عليه تهيئة نفسه لمرحلة جديدة في سِفْر حياته الزوجية. قالت تمازحه:

- أبشر يا عريس.

- اسمها منو؟

سألها وهو يكتم ابتسامة تكاد ترتسم بين أسنانه الناصعة البياض، أجابته:

- علوية حسنين.

Scanned by CamScanner

مع نطق اسم الأب لاحظتْ رُقيّة اتِّشاح وجه أبيها بالحزن، شروده عنها لجهاتٍ بعيدة، تدرك أنَّه عندما يفعل ذلك يكون قد انتقل إلى زمن آخر. لم ترد إزعاجه أو سرقته من ذكرياته، تركتْهُ واجمًا، وغادرتْ حديقة المنزل للداخل على أنْ تعود له بعد دقائق مُحَمَّلةً بالشاي الأحمر الذي يحبُّ أنْ يرشفه بصوت مُجَلْجِل. غاب هو في تَذَكُّر أخيه شهيد عنبر جودة، ها هي الأيَّام تعيده في اسم زوجته المُرَشَّحة؛ هل لأنَّه انتوى الزواج إنابةً عنه عليه أنْ يلتصق باسمها؟! شعر أنَّ في الأمر مباركة إلهية، أنَّ يدَ الخالق ستدعم مسعاه، وأنَّ له ذرية مباركة ستخرج مِن رحم علوية، سينتمي إليها وتنتمي إليه، وهو الذي قضى عمره يبحث عن رجل مِن ظَهْرِهِ يُقَاسِمُه الحياة. عادتْ رُقيّة تحملُ كوب الشاي وصحنًا مملوءًا بالفول المدمس، لم ينتبه إليها وهي تجرُّ مقعدًا وتجلس إلى جواره منشرحة، قالتْ له:

- مبروك مقدمًا.. شد حيلك وجيب لينا أخ.

- الحمد لله.. ربنا يسترنا ويرزقنا.

بدأتْ تحكي له أنَّها زوجة أحد الجنود، مات زوجها وهي في أشهرها الأولى معه، حصدتْه الحرب في الجنوب أيَّام فَوْرَة الجهاد، وأنَّ التليفزيون نقل كراماتٍ لزوجها الميت، وهي تحكي ما لا تُصَدِّقُه رأتْه مِن بين انتباهه وحزنه يبتسم عندما ذكرتْ له تلك الكرامات، ظلَّ يردد ما شاء الله. قالتْ له إنَّها بعد الزواج سترحل؛ لتسكن معهم هنا، وأنَّها ستساعدها في البيت، ستكون لها أختًا لم تلدها بخيتة. وهي تحكي بدأ الصرماتي يعقد مقارنات بين زيجتيه السابقتين حينما كان أوفر صحة، وأقل تجعيدًا، وكيف أنَّ الزواج يأتيه كمطرٍ مفاجئ

Scanned by CamScanner

لا يمكنه أنْ يَتَّقِيه. سيمسك بجلبابه في فمه، ويهرول خشية أنْ يمتلئ بالطين. هنا الناس لا تخشى ما يأتي مِن السماء بقدر ما تخشى وحل الأرض وأدرانها، سيرفع جلبابه هذه المرة ويَعُضُّ عليه بالنواجذ حتى يبصر العالم أنَّه مُمْطر لا يخشى البلل، سيرى الناس ركبتيه المتجعدتين كنباتٍ بَرِيّ أظمأتْه الصحراء، سيميد بركبتيه بحثًا عن المتعة كشجرة مُعَمِّرة لا تستحي أنْ تخرج من جذورها فسائل مفرهدة. وحتى لا تظن ابنته أنَّه سيتراجع، أو أنَّه متوتر قطع صمته، سألها:

ـ وين كارمين؟

ابتسم وهو ينطق اسم حفيدته كما ينطق جملة استفهامية.

قالتْ بتوتر: في الجامعة للآن.

- حذار مِن مصير الدكتورة.

ضحكتْ له رُقيّة.. سكتتْ وفي جوفها سؤال ينهض بقوة: تُرى مِن أين يُقبل رجل في سنِّه على الزواج بِكُلِّ هذه الجسارة؟ وما سِرُّ أهمية الزواج في حياته حتى يُبْدِي قلقًا على نصيب حفيدته مِنه، وهي لَمَّا تزل بعد في ريعان الفُرَص؟

Scanned by CamScanner

(1)

هذه المملكة لم تصنعها الصُّدفة، ولا مجد أبي، الله تدخَّل فيها بقدرٍ معلوم، وما تبقَّى إنجازٌ فرديّ. الأزمة الاقتصادية لن تضيرني وحدي، أشعر بأنَّ العالم يختنق تحت كرسي الرئيس، لا أستطيع أنْ أنبس بكلمة واحدة لِنُصْحِهِ، بينما أراه كثورٍ هائج يُحَطِّم المعبد علينا جميعًا، يريد أنْ يبقى زعيمًا واحدًا لا رادَّ لسلطته رغم جوع النَّاس، والانهيارات مِن حوله، كُنَّا نتحدث عن زعيم مُجَاور قتله شعبه، وسحله في الشارع، قال لي بِثقة ساذجة:

- شعبه ما كان يحبه.

- فعلاً سعادتك.. الوضع بينكم شتَّان! شعبك يموت فيك يا ريس.

كُلُّ يومٍ أرى شعبه يموت ببنادق عسكره، تَسْحَلُهم السيارات ذات الدفع الرباعي، ولكن ماذا يعنيني مِن أمرهم، وأنا الذي أنفقتُ حياتي؛ لأهرب مِن شعبه المسحوق، وأَبْنِي مملكتي العظيمة، ملايين مِن العملات الأجنبية، وعشرات العقارات في فجاج الأرض المُتْخَمَة! مع اهتزاز كرسيه تضطرب مملكتي في منبعها الأول، لا أتخيلُ أنْ يستمرَّ تدفق أنهري لو أنَّه نُزِعَتْ مؤخرته مِن مقعده، لن يكون بمقدوري الحفاظ على توازني في سوق الله أكبر، سيطيح بي المغامرون الجدد، وقد أتحوَّلُ في لحظة إلى متسولٍ كونيّ، أو مجنونٍ محليّ. أكره السياسة، علاقتي بها كعلاقتي بالصلوات الخمسة، وإيماني بقدرتها على حلِّ مشاكل الحياة كإيماني بيوم النشور، غَصَبَنِي على مُرِّهَا الأَمَرُّ

Scanned by CamScanner

مِنها، الفقر وتلك الوصمة التي أحاول مسحها ولو بنزع جلدي عني. سأدافع عن الرئيس حتى يهلك دوني! في لحظة ما عندما يجرُّه الناس في الشوارع، وينزعون بنطاله عن مؤخرته سأكون في أعالي بناياتي الشاهقة، ألقي عليه نظرة الوداع. في هذه الأيَّام العصيبة سأحتمل فُسَاءَهُ على الكرسي، ورعونته في الحديث، سأجاريه حتى تأخذه الأقدار، ولن أعدم حيلةً في اعتلاء ظهر الأيَّام القادمة، قلتُ له:

- أريد تحويل مبالغ كبيرة للخارج سعادتك.

- هييع.. البحر الكبير.

كعادته يسخر في مزاحه، ويهتف بكلمته المُحَنَّطَة (هييع) عندما يريد أنْ يراوغ، ويخدع محدثه، فهمتُ أنَّه لا يرغب في استكمال الحديث، وأنَّ عليَّ إنجاز طلبي عبر زوجته؛ هكذا عَلَّمَتْنِي التجربة أنَّ للرئيس أكثر مِن باب نحو رأسه المغلقة. يوم تزوّج أبي هاتفتني تبارك لي، أعلم أنَّ الفكرة راقتْ لها، تحبُّ الرجال المِزْوَاجِين، تتصوَّر أنَّ الزواج صفقة رابحة بين أي طرفين. استقبلتُ مباركتها بفرحٍ، زعمتُ أنَّنِي مَنْ زوَّجته بناءً على رغبته، وأنَّنِي ذلك الابن البار، ثم قدَّمتُ لها قائمةً مِن المطالب والمعاملات أجازتْها لِي.

أُفكِّر فيمَنْ سيتزوَّج بناتي، لابدَّ أنْ يكون شخصًا مطيعًا، لا يهتمُ بالجمال ولا المال؛ لئلا يطمع في مالي أو في غيره، وفي ذات الوقت أريده أنْ يكون مَحَطَّة في طريق النجاح، الجمع بين الفكرتين صعب؛ وهذا قد يقود البنات إلى البوار. بعد أيَّام مِن مكالمتها لي ذهبتُ لها في منظمتها التي تسترزق منها. مرَّة أخرى حاز زواج أبي على حديثها، حسدتُه على الضجة التي يصنعها كُلما تقدَّم به العمر، زواجه مؤشر

Scanned by CamScanner

على مُمْكِنَاتِنَا الجنسية كَأُسْرَة؛ لذا يثرثرون عَمَّا سأفعله في مُقبل أيَّامي حيال الزواج، لا يعلمون بالطبع أنني اخترت أنْ أفرغ رغباتي في السِّر، وبعيدًا عن ألسنة الرقباء. قالتْ لي وهي تتأرجح بكرسيها الدَّوّار:

- لابد نفرح بيك.

- بعد زواج البنات.

ألقيتُ بالجملة بحثًا عن حَلٍّ ومقترحاتٍ تُقَدِّمها لي، لعلها تقتل هواجسي تجاه مستقبلهن، قالتْ:

- قبل أيَّام قابلت الطبيبة، أظنها رقم ثلاثة.

لحدٍّ ما هي أجمل بناتي، فيها مِن أمي تَنَاسُق قوامها، وسحر ابتسامتها. أومأتُ لها برأسي إيجابًا، فأردفتْ:

- ناخدها منك لابن أختي.

وَجَمْتُ لدقيقةٍ، أدارتْ الكرسي بعيدًا عن وجهي، حرَّكتْ القلم في يدها. قلتُ:

- يا سلام! نكون محظوظين جدًا.

رفعتْ يديها المكتنزتين بالشحم، قرأنا الفاتحة ولم نكملها، بدتْ لي كرجلٍ منافق رغم ما أشيع عن جمالها، وافتتان الرئيس بمؤخرتها. علمتُ فيما بعد أنَّ ابن أختها بدأ مشواره في الأعمال سمسارًا للدجاج البلدي، يشتريه مِن أهالي قريتهم ويحضره للأسواق الطرفية بالعاصمة. في سنوات قليلة تحوَّل إلى رجل أعمال، عقارات ومركز تسوُّق في سنتر البلد، وقيل إنَّ له عقارات متناثرة في الخليج العربي، وأماكن أخرى مِن كوكبنا. نَسِي ما كان مِن هراء الدجاج، وأعراف الديوك! أدركتُ دوافعه للزواج مِن ابنتي، عَبْرَها سيحصل على مؤهل أكاديمي، ويضع

Scanned by CamScanner

نفسه في مجتمع لم يحْظَ بالانتماء إليه. كُلُّنا نبحث عما نفتقده، نغسل عارنا في الآخر. سأجعل مِن الزواج ريحًا عاصفة تطفئ فقاعة زواج أبي، سأشغل النشطاء وأملأ الوسائط. الأوغاد سينسون زيجة أبي تمامًا، كراهيتهم لأسرة الرئيس ستجعل الزواج مضغة الفقراء، مِن جهتي لن أهتم، وليفرقعوا بغيظهم. ابنتي أميرة وزوجها بروفيسور؛ ما هو الشيء الغائب عنَّا؟ هذه المصاهرة أعظم مِمَّا كنتُ أتمنى، لن تكون ابنتي الطرف الأضعف، ستزهو عليه بشهادتها الجامعية، ولن أخرج أنا مِن الزيجة بلا حُمُّص، سأرمي شراكي نحو عمق جسد الفريسة، ربما إذا تعافى بائع الدجاجات مِن جهل الديوك أصير رئيسًا للوزراء، الشيء الذي لم يراودني في يقظتي المبكرة.

دعوتُ رُقيّة؛ لتشهد كيف يكون الزواج، ليس ترميمًا لعظام الموتى، ولا ترهات شيخ أنهكتْه الحياة، قالتْ لي:

- مبارك مقدمًا، سأحاول الحضور.

- ننتظر حضورك، وكارمن.. تشرفونا.

هذه المَرَّة عليَّ أنْ أكذب؛ أريد أنْ أعرف هل أفشتْ ابنتها أمري، خصوصًا بعد أثبتت نتائج الفحص أَنَّنِي خالها، الآن أشعر بخجل طفيف، وأتمنى أنْ تُمسح تلك اللحظة مِن تاريخي النقي. رَدَّتْ عليَّ:

- كارمن تَحَجَّبَتْ.. عقبال بناتك.

ترمي بالكلام كسهامٍ لا تطيش، هل أنا مَن دفعها للدين؟ الحجاب أمر ربَّاني، وقد يكون النقاب أيضًا.

- بناتي لا يرغبن في الحجاب.

قلتُ كلماتي، لم أُلقِ لها بالاً؛ فأفحمتْنِي بِرَدِّها.

Scanned by CamScanner

- أفضل لهن.. ابنتي مسكينة؛ تشتري بضاعتكم الكاسدة.

لا أودُّ أنْ أخوض معركة يتم فيها تفريغ ندمها وحزنها، ولتندب حظها في الوقت الذي سينعمُ أبوها بجسد امرأة قانعة مِن الدفء. أغلقنا الهاتف بمناكفاتٍ مُسْتَتَرَة. عدتُ أُفَكِّر في خطي المستقيم نحو غاياتي، بعيدًا عن أوهامها.

Scanned by CamScanner

(2)

مع مرور الأيَّام تسوء الحياة برفقة فريد، يبدو مزاجه مُعْتَكِرًا هنا. يُحَمِّلُنِي مسؤولية أنْ أصنع له فرص الحياة، ومُتَعَها التي افتقدها بعد سحبه مِن أوروبا. تُرى هل يفتقد الشقراوات؟ تَوَقَّف عن الكتابة، صار يرغي ويزبد لتنفيذ مطالبه. سعيتُ أنْ أبذل له جسدي مُجَمَّرًا بالطلح والبخور؛ عَلَّنِي أستعيده إلى مناخ بلاده، ظلَّ يحاولُ الانسجام معي ويفشل، لست شابة ليؤلمني إخفاقه، لستُ أطمع في ولادة بعد أنْ تَقَدَّمتْ بِي الأيَّام، كُلُّ ما أريده أنْ نستمتع بما تبقّى لنا مِن وقتٍ في ديارنا. أليس مِن حقّنا بعد سنوات الهجرة، وشقائنا في بناء البيت، وأسس الرفاهية المعقولة أنْ نستظلَّ بِمُتَعِ الحياة، وأنْ نصوغ خيطًا مِن الذكريات الجميلة على هذه الأرض؟ لا يمكنني أنْ أشرح له شيئًا، الشروح تفسد متن الشركاء، عليه أنْ يفهم وحده، وكأنَّه أعمى يسكن معي، لم يبصر فيَّ أو فِي المكان مِن حوله ما يستحق النظر إليه.

ذات ليلة غاب فيها وبينما أُرَتِّب حاجاته وجدت معينات جنسية، مراهم، حبوب، نسكافيه.. فوجئتُ بهذا الكم المهول مِن المقويات، كل هذا لي أنا؟! هل إشعال حُبِّه لي يحتاج إلى تدخل العلم ومخرجات الرأسمالية؟ لُمْتُ نفسي، وَبَّخْتُها بشدة، أنا سبب هذا الفخ الذي وقع فيه زوجي، وعشق صباي الباكر، تَجَمُّلِي له وضعه أمام تحدٍّ يومي، خُيِّلَ له أنَّنِي عدتُ للديار شرهة، أشتهي ما عليه النساء البسيطات مِن شغفٍ وخلو بالٍ، قرر أنْ ينتصر مستعينًا بمنجزات العلم. كنتُ

Scanned by CamScanner

أريد روحه، منحه المتعة التي يشتهيها الرجل في بيته، لم أُفكِّر في نفسي، وأعلم أنَّني تلقائيًا سأحصل على العافية والمتعة، وقبل ذلك استقرار بيتي. قررتُ ألَّا أحدثه عما رأيتُ، سأكتفي بتغيير سياستي نحوه. الأمر مؤلم، بعد كل سنوات السفر التي قضيتها في شوق للجلوس كأي امرأة مِن بلادي على حفرة دخان، يَتَعَيَّنُ عليَّ نسيان أمنياتي، أنْ أعود إلى جدبي المهجريّ، وبرود مستحضرات التجميل الغربية. ليس أمامي حل غير نسيان أَنَّنِي أنثى، مِن حقها أنْ تَتَجَمَّل طوال سنوات عمرها، أنْ تحلم بيد تمتد في الظلام لتعبث بشعرها، وشفاه تهمس في أذنها.. سأحتفظ بفريد حَيًّا، غَيَّر هيَّاب مِن لَيْلِي.

نجحتُ في تجاوز حالة برود فريد بتجاوز المستحضرات الوطنية، لم أعد أفعل شيئًا بلديًّا، صرتُ أرتدي البنطال والأردية القصيرة في البيت. أبدو كأنَّني امرأة خليعة لا زوج لها تتبرج في قارعةٍ، تبحث عمَّنْ يلتقطها لليلةٍ واحدة. نجح فريد في التقاطي بضع مَرَّاتٍ في الشهر، كنتُ أتألم في أعماقي، وأسعد مِن الخارج، أشعر أنَّنِي أتمزق، رغبتي في التمتع بوقتي وخلق ما يناسبني لم تلق اهتمامًا منه، ولو أنَّنِي لم أُقَدِّم تنازلاتٍ ما؛ فسأفقده، وفي أحسن الأحوال سأكون زوجة فاشلة. شعرتُ أنَّه لا شيء سيبقى في الكون على حاله، في وتيرة واحدة نصبو إليها، كُلّ مَا قدّمتُه كزوجة صالحة ووفيّة لم يشفع لي، حوَّلني لامرأة بليدة، خاملة الذكر. قررتُ أنْ أبحث عن عمل، أو معاودة استكمال دراستي، عندما أخبرته برغبتي تَمَعَّن في وجهي كَمَنْ يريد أنْ يفتح باب السجن لعصفور قد لا يراه مرَّة أخرى، ثم قال:

- تمام.. أنت حرة.

Scanned by CamScanner

- رأيك يهمني طبعًا.

قاربتُ أنْ أقول له "وحبك.. وشغفك".

قاطعني: بكل تأكيد أنا مع كُلّ حقوق المرأة.

سأفعل إذن ما يشبهني، أعود إلى سكة نضالي القديم المتجدد، حزبي ومجموعة الرفاق. سأهتم بأبي، وأستعيد كارمن المُحِبَّة للحياة، حتى أنت يا فريد سأستردك من تواطؤك ونزقك.

بينما أتَّجِهُ نحو إيجاد الوظيفة أجدُ كارمن تبتعد عني أكثر، ترفض زيارة رفاق الحزب لي بحجة أنهم رجال، وأنهم غير متدينين، أقول لها:

- أعرفهم مِن أيَّام الجامعة.. وأبوكِ يعرفهم فردًا فردًا.

- ما يهمني رأي أبي.. المهم رأي الدين.

- نحن البشر نقرأ مقاصد الدين.

- أبدًا.. علينا الرضوخ لرأيه بدون مناقشة واستنتاج.

صارتْ صخرة مغلقة في أشهُرٍ معدودات، هذا آخر ما كنتُ أتوَقَّعه، أنْ يسلب مِنِّي الوطن كارمن، يحبسها بعيدًا عني. أفقتُ على ضرورة الاستماع إليها؛ حتى لا تنفر مِنِّي، وأنْ أستعيدها ببطء.

لم يدعم فريد عودتي للرفاق، ولم يحبطني، وقف سلبيًّا ينظر ما سيحدث لنا ونحن نحاول استجماع قدرتنا لنقاوم. البلد لم تعد واحدة، والناس باتوا أكثر ركونًا لمصائرهم.. السوس ينخرُ في عظم كُلِّ حَيٍّ وجامد. أبي يقاوم بجسارة، أنظر إليه بإعجاب وهو يخطو نحو الزواج بجرأة، في الوقت الذي يحدد فريد شكل ما يتحتم عليَّ أن أكون، يطلب أبي زوجة بلا تعريف أو توصيف، كأنَّ البشرية عنده اتفقتْ على ملامح هذه الشراكة، أو أنَّه قادر على الاستجابة، وقابل

Scanned by CamScanner

لكل صورة في قلبه، وهي ببساطة ستتزين له، ستعرض نفسها كدنيا عليه أنْ يغترف مِن شهدها. عرسه لن ينطفئ بريقه في عينيه ولا في حياة الناس. الصرماتي في داخل كُلّ مِنَّا يعيش، ملايين مِنهم فرحوا له وتداولوا خبر زيجته البسيطة، المفارقة أنَّهم هاجموا عاطف وسخروا مِن زوج ابنته الثري في زمان الغَفْلَة.

بعد انهزام عاطف في نفي نسبي صار يتقرّب إليّ بطريقة فَجَّة، يريد أنْ يوهمني أنَّه إنسان فيه الخير والشر معًا، مع أنَّنِي ومنذ طفولتي لم أرَ مِنه خيرًا، كل ما رأيتُه مِنه هو أنانيته المفرطة، وقسوته مع أبيه، أحيانًا أفكر أنَّه يتودد إليَّ بعد أنْ شعر أنَّ سلطتهم بدأتْ تترنح، وأنَّه يفعل ذلك مع آخرين أيضًا، ولكنه يعود بعد أيَّام قلائل لنرجسيته ويُصَدِّر الأذى لِمَنْ حوله. زواج أبي أقضَّ حياته، بات يشعرُ بانكشافه أمام الناس عاريًا مِن ستر أكاذيبه، تأكد له أنَّ الرجال يفعلونها في أي مرحلة مِن حياتهم، وأنَّ ما قرأه في المدارس لم يصنع منه إنسانًا حُرًّا كما يتصور، لم يجعله قادرًا على اتخاذ قرار في حياته دون أنْ يضع في حسابه ثروته ومكانته بين مَن يسميهم (ناس).

Scanned by CamScanner

ثورات تهدأ

انتفض جسده انتفاضة مُسِن، تَوَتُّرُ الخبراء يعصف به. هو الرجل الذي لم تهزمه نساء اصطادهن الموتُ قبله، تاركات له وحشة الطريق، وخرائط جسده الممزقة. استلم علوية حسنين، عليها مسحة الحزن، لا يشبه حزن بخيتة في المحكمة، إنَّه سهو الأرامل الذي يخفي جمالهن. يحاولُ الزواج الجديد طمسَ معالم الموت، لكنه يكشطها ويبقي جزء مِنه كهالةٍ حول العينين، أو في نبرة الصوت المنكسرة. عيناها تقولان شيئًا لا يفهمه الصرماتي، ومع ذلك يُحِبُّه! يشعر أنَّها تحمل له رسالةً بالصمود. تقف أمامه بثوبها الوردي، وعطورها تفضح شبابه المُختبئ في عروقه، تلامس مقبرة نسيها الزائرون، وزهد فيها الموتى. تقوم وتقعد، تتكئ وتستنهض جسدها؛ لابد أنَّها متوترة مثله، تعيد ذكرياتها الأولى مع زوجها الميت، يُقال إنَّ المرأة لا تنسى رجلها الأول، هذا ما ظلَّ يسمعه مِن الكبار أيْنَمَا تَنَقَّل، يتدبر في الأمر؛ لم يكن في يوم ما هو الرجل الأول حرفيًّا لامرأة! كُلُّهن ذوات تجارب، ترى هل ذهبن عن الحياة ناسيات فتوحاته الجميلة، وشغفه بتفاصيل تخصُّه وحده. على مدى سني وحشته لم ينسَ بتول وتفاصيل أيَّامه الأولى معها في وادي المَعَّاز، وكيف أنَّه عندما تشبعُ مِنه تجوع لعصيدة اللبن، ثم ينتابها جوع آخر له، في كِبَرِه يبدو ردفها أكبر مما كان يراه في شبابه، تصغر مساحات الأمكنة وتملأ الزوجة البراح! لم ينسَ جسد بخيتة القوي وروحها الضعيفة، واندلاق دمعتها في ردفها، يندملُ

Scanned by CamScanner

الجرح عندما نجد مؤاسٍ.. لم ينسَ شيئًا أبدًا، يحتفظ في تلافيف تجاعيده البعيدة بكل تفاصيل اللقاء، قطعًا النساء أيضًا لا ينسينَ، ويتعلمْنَ في كُلِّ مرَّة معنى جديدًا.

أرخى جسده؛ لتتحدثَ انتفاضته، تذَكَّر حسنين ومحبوبته، شبابه الضائع هدرًا في عَنْبَر جودة، الأيادي الخفيّة التي ساقتْهُ إلى حتفه. استدعى شقيقه إلى جسده، أعاد تجديد نِيَّة الزواج لأجله وإنابة عنه. رأي علوية فتاة عند الترعة تنتظر عودة عاشقها المجنون، تلبس فستانًا ممزقًا تحلم بتغييره يوم الزواج، تحمل جسدًا لَدِنًا تتمنى أنْ تهبه رَجُلَها. رأى نفسه حسنين، مُزَارِعًا يتحلى بالصبر والأمنيات، عضلاته تضج بالقوة، وجهه مبتسم كزهرة خريفية، شعر به يَتَلَبَّسه، يتوغل مسام تجاعيده، يتوسط روحه. علوية بدأتْ تلحظه، جسدها يستجيب مِن بعد، يداها تَنِزُّ العرق، يا للشباب! تقدم نحوها محدودبَ الاشتهاء، همس في أذنها بكلمتين. أرختْ صوتها، رفعتْ غُلَالة الحزن مِن عينيها قليلاً. يعتقد عبد القادر الصرماتي أنَّها لم تعد تتذكَّر أحدًا في تلك اللحظة، كانتْ في احتياج له وليس للذكرى، يعتقد أنَّه في لحظاتٍ أخرى ستذكر المرحوم، وتقرأ على روحه فاتحة الكتاب، هو أيضًا نسي زوجتيه وحسنين، الموتى يذهبون بعيدًا في اللحظة التي نُجْهِزُ فيها على وحدتنا، وتلتحم أنفسنا في نفس واحدة بهيجة، نختفي نحن في فضاء لا تصله أطياف أخرى. سيقرأ على الموتى آيات الله التي يَذْكُرُهَا، في التحامٍ لطيف أحسَّ أنَّ جسده سيخرج منه في رحمها، ستكون في القاع المظلم، يراها هو وحسنين، يحملانها معًا إلى بحر الضوء الجارف.

Scanned by CamScanner

كُلُّ ليلةٍ تبدو علوية أصغر سنًّا، يصغر معها، يكبر إنسانٌ ما في قاع ظلمتها، تساءل هل بعد هذه الأيَّام وثورتها، سيعيش ليرى كائنًا جديدًا يخرج مِن عظامه للعالم؟ فرقعة حذاء رُقيَّة في الخارج، ستأتي حاملة لهم عصير البرتقال والجزر، سيرى في عينيها التوتر، ومحاولات استراق النظر إلى بطن العروسة، تحدثهم بعيون زائغة، ثم تنسحب في صمت إلى غرفتها، عندما يسألها عن كارمن تسرح لبرهة ثم تجيبه.. إنها تَبرُّهُ بمحبة، قريبًا سيترك لها مولودًا تعتني به ويغادر إلى زمرته الأخرى، أيضًا سيترك لها علوية بحزنٍ متجدد حول عينيها، ابتسم وهو يهمهم: سبحانه.. ما دايم إلا هو.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

(1)

(تَمَكَّنَتْ مجموعة مِن الطلاب والطالبات مِن التسلل، والمُشاركة بالجهاد ضِمن تنظيم الخلافة لبناء الدولة الإسلامية، عبر عنصر عربي دَرَس بالجامعة، ثم تخرَّج وظلَّ يتردد عليها باستمرار. الطالبة ك. ف خرجتْ مستخدمةً جوازًا دبلوماسيًّا). أغلقتُ صفحات تقرير الجهات الأمنية، ومؤخرتي تسيلُ عرقًا. ما حدثَ كارثة حلَّتْ بالجامعة، وباسمي المُغَطَّى بالذهب. الأوغاد عناصر المعارضة.. سيخرجون مِن جحورهم؛ ليخوضوا ضدي حربًا لا أخلاقية، بزعم أني مَن زجَّ بطلابه إلى مِحْرَقة الحرب، وهل أنا مَنْ شرع فريضة الجهاد؟ هل أنا مَن خاض الجيوش لفتح أقطار الأرض؟ أنا لم أفعل إلَّا ما يقوم به ترسٌ صغيرٌ في ماكينة كبيرة. ستُحَمِّلُني رُقيّة مسؤولية هروب ابنتها مستخدمة الجواز الدبلوماسيّ؛ لتلقن الكفّار درسًا لن ينسوه. هل أنا مَنْ استخرج لها وثيقة سفرها؟ أم هل أنا مَنْ عاش بها في بلاد الكفّار، ولم يلقنها صحيح الإسلام؟ أعترفُ أنَّني علمتُ بأمر خلية التجنيد مِن وقتٍ مبكر، ولم أحرك ساكنًا، فكرتي كانتْ مختلفة تمامًا، وليستْ بأي حال مِن الأحوال نوعًا مِن التواطؤ.

أقود سيارتي في شوارع الخرطوم التي خَلَتْ مِن نُعْمَاءِ البترول، الحُفر والمنزلقات على شارع الإسفلت لا توقف رأسي عن التفكير في نتائج الكارثة، صداع يضرب شقّي الأيسر، وينزل مِن كَتِفِي حتى خصيتي اليمنى، صداع مِن خلاف! يَرِنُّ هاتفي، إنَّها رُقيَّة:

Scanned by CamScanner

- ألحقني.. يا عاطف.

صوتها يخرج مِن بحيرة تنفجر بالدمع، تبدو ضعيفة للغاية، أبتسمُ خلفَ سمَّاعة هاتفي، أضمرُ في سِرِّي ما كنتُ أقوله لها منذ أنْ التحقتُ بالجامعة. أردُّ عليها:

- هوِّني عليك.. دائمًا هناك حل.

- اعمل أي شيء.. لازم كارمن ترجع في أقصر مدة.

- حاضر.. يهمنا سلامتهم جميعًا.

- رَكِّز على استرجاع كارمن.

لم أنبس بكلمةٍ، أحاول أنْ أُظْهِر لها كم هي أنانية! وأنَّ ادعاءاتها النضال مِن أجل الناس تتحطَّم عند أوَّل محك حقيقي، فيما بعد ستبرر ما قالتْهُ بأنَّه قلق الأمهات. قلتُ؛ لأطمئنها:

- سأقابل الرئيس شخصيًّا وأنقل، له ما حصل.

- طيب أنتظر منك مكالمة.

أغلقنا المحادثة وأنا أتجوّل بسيارتي على الطريق، غير مهتمٍ إلى أين سينتهي بي. أعلم أنَّ الرئيس في زيارة لأحد ولاياته الملتهبة بالحرب، قلتُ ذلك فقط؛ لترى مدى قدرتي على اقتحام جدول أعماله. فَكَّرْتُ أنْ أذهب إلى زوجته، في الغالب هي الأقدر على إنجاز المهام، أتى بها إلى القصر؛ فغافلتْهُ وصادرتْ سلطته، تركتْ له الولايات، وشؤون المنابر، وعكفتْ تعمل ما تريد في الخفاء.

في مكتبها قيل لي إنَّها ذهبتْ في رحلةٍ على النيل مع وفد أجنبي مُسْتَقِلَّةً اليخت الرئاسي، انتظرتُها كَمَنْ ينتظر دوره عند حَلَّاق شعبي. دخلتْ بسرعة ملقيةً سلامًا مقتضبًا، جلستْ تستمعُ إليَّ ممسكةً قلمًا

Scanned by CamScanner

مِن النوع الذي لا يكتبُ به الفقراء مِن أمثالها، ولكنه الحظ! ابتدرتُ حديثي:

- طبعًا.. جئت أطلب عونك في موضوع الطلاب، وبالذات البنات.

- عارفة.. حادثة مُضِرَّة بنشاطك، واقتصادياتك.

بَثَّتْ بين شفتيها بسمةً معطونة في كَوْمَة مِن الخبث، ماكرة تستتر خلف ثوب سيدة أولى.

- نعم.. وتهمني عودة ابنة أختي.

- صحيح.. والدها كيف ترك لها الجواز بعد عودتهم مِن الخارج.

- يجب أنْ يُسَاءَل بكل تأكيد.

- سأحل الموضوع بالتليفون.. انتظر دقائق.

أخذتْ تتحدَّث مع أميرة مِن الخليج، بدأتْ حديثها بالتجارة، وأسعار العقارات عندهم، وسوق الأوراق المالية، ثم دلفتْ للعنف في المنطقة وموضوع أولادنا وبناتنا، تتمايل بكرسيها الدوّار، تَمُدُّ جسدها كيفما تريد، كأنَّها تجالس بائع اللبن في قريتهم العشوائية، غاظني تجاهل فحولتي المستترة خلف البرتوكول؛ وما بيننا مِن مصاهرة، صرتُ أَتَجَوَّل بنظراتي في مفاتنها المحكمات والمتشابهات، أبدتْ تجاهلاً لنظراتي، فتحتْ خط محادثة مع مسؤول أمني. تذكَّرتُ زوجتي التي أعطاني لها الزعيم، تساءلتُ، هل اختيارها مِن قِبَلِه يوازي مستوى تقديره لِي؟ إذن هو لا يقدّرني أبدًا، مكانتي عنده أسفل سافلين، ابتسمتُ مِمَّا خطر لي، حتى كدتُ أفلتُ مِن الصداع اللعين. بعد أنْ أنهتِ المكالمة، اتجهتْ للحفر في جهاز الكمبيوتر، يَجُول مُحَرِّك البحث في مواقع الأزياء والإكسسوارات النسائية. انتبهتْ لِي بعد

Scanned by CamScanner

أنْ جالتْ كَصِبيَّة مُراهِقة. حدَّثَتْنِي أنَّ جهودها ستكلل بالنجاحِ، بأنَّ شبكة علاقاتها الإقليمية لن تعجز أمام هذا التنظيم الجديد في المنطقة كلها. شكرتُها وانصرفتُ أُفَكِّر في مصائر الأزواج، أي قسمة ضيزى أصابتْنِي بين رجال الكون الواسع؟ إذا تَمَكَّن إنسان مثابر مِن حل مشاكله الاجتماعية والاقتصادية؛ فإنَّه لن ينجو مِن أقدار السماء التي لن تعدم حيلة في إتعاسه.

لم يتفاعل أحد مِن قاطني بيتي مع هروب كارمن، أظنُّهم تعاملوا معها كمعتوهة، ربما بنت صفيقة! كيف تترك الحلم بالزواج ونعيمه؛ لتتمرغ في نار الحرب وويلاتها. زوجة سمسار الدجاج عَبَرَتْ بِي وأنا مطرق، رأيتها تحوم كَفَرْخَة تبحث عن منفذ من سجنها. زوجتي تنام على الأريكة، ويدها تقبض على جهاز التحكم، كانتْ تشاهد مسلسلاً تركيًّا مِن الطراز الرومانسي، تتهدل شفتاها في بَلاهة، خرائط مِن لعابها ترتسمُ على خدها الأيمن. عاملةُ المنزل الأجنبية ترفع الستائر بيديها حتى رأيتُ لحم خصرها الطري، هي أجمل ما يمكن مشاهدته فِي مملكتي التي كابدتُ لتأسيسها، لو أَنِّي اكتفيتُ بخادمةٍ فقط؛ لكنتُ أسعد مِمَّا أنا عليه الآن!

أبي رغم وضاعة عمله يستمتع بحياته، ما كنتُ أشاهده بين أمي وأبي في خلاء الوادي يشغلني الآن، يقضُّ شيخوختي المُنْدسَّة مع المُنْدسِّين. أبي يتمتع بخاصيتيّ التقَبُّل والمراوغة معًا، ولذا ظلَّ حيًّا لفترة قياسية في عصر انحطَّ فيه عمر الإنسان. هل كان عليَّ أنْ أعترف ببعض خصائصه؛ لأتعلمَ مِنه ما يُبْقِيني بعيدًا عن الضغط، السُّكَر، وآلام المصران الفادحة؟ لا عليَّ، ولا أنا أحزن! لو أَنِّي تابعتُه واعترفتُ

Scanned by CamScanner

ببعض علومه وفضائله؛ لبقيتُ مكانه، في ذات وضعه، ولخالفتُ سنن الكون الربانية.. أنا نواة التغيير، أنا شعلة الطموح، أنا منارة النجاح.

رنَّ هاتفي وأنا أتدبر أمري والأكوان من حولي.. إنَّه فريد.. الزنديق الأرعن عرف أنَّ الله حق! فتحت السماعة الخارجية، ولم أرحبْ به، صوتُهُ يَتَكَسَّر في فضاء الصالة:

- تحياتي يا بروف.. عَلَّك بخير.

- مرحبًا، الحمد لله.. في نعمة كبيرة.

- مُتَّصل بخصوص ما حصل.

- نعم.. سأفعل المقدور عليه.

- أثق في معالجتك لوضع ابنة أختك، وأريدك فيما يخصّني منه.

- تقصد موضوع الجواز.. لا عليك؛ اعتبره منتهيًا تمامًا.

العِلْجُ يخشى على وظيفته أكثر مِن خشيتِهِ على ابنته. مِن أين له أنْ يثقَ في قدرتي، بل ورغبتي في معالجة وضع ابنته؟ قلتُ لرُقيّة "إنَّه شاب جيد، ولكنه لا يصلح زوجًا" فراحتْ تُحَدِّثُني كيف أنَّه ملاكم بارع حين ردَّ الصفعة عن خدها بلكمة أقوى. هذه العقول الصغيرة لن تُبصر أبعد مِن اللحظة، بالضبط هذا التصرف هو ما كنتُ أتحسّب له في ذلك الوقت الباكر. سأترُكُ التفكير الآن، سأترُكُ البُلَهَاء يعمهون في لعابهم القذر، سأحقن نفسي بالأنسولين لأخفض هذا السكر المُنْدسّ في دمي.

Scanned by CamScanner

(2)

في الليل يشعر أبي بحزني، يأتي محدودبًا يتفقد الدمع في خدي، يهمس في أذني بأنَّها ستعود، أقول له: إنَّ المدة قد طالت وهي بعيدة، لا أخبار عنها. بحزم يخبرني أنَّها سترجع سالمة إلى البيت، ساعتها يكون هو قد انتقل إلى الآخرة.. أبكي دمعًا مزدوجًا، سأفقد شخصين مِمَّنْ تعلَّق بهم قلبي على قلّتهم في الحياة. يعود فريد متأخرًا كعادته منذ قدومنا غير الميمون للديار، يجد دمعي قد جفَّ، يظنني ثابتة في الله محتسبة، ودواخلي تشهد أعظم انهيارٍ، يسألني عن عشائه، ومعجون الأسنان. يعد لنفسه قهوةً، يرشفها كشابٍّ يُمَزِّقُ الوقت الفارغ، يقول متأففًا:

- ما قادر أعيش هنا.

- اصبر لغاية رجوع كارمن.. بعدها الله يعدل خطوتك.

أتفهّم ما يعيشه في هذا المأزق، لا أوافقه.. فقط أعلم أنَّه لم يستجب للحياة هنا، وإذا عارضتُه فسأكون قد حكمتُ عليه بالموت أرضًا، وهو نوع مِن الموت المُبْطِئ في زحفه على الجسد، يحدثُ عندما يفقد الجسد قدرته على تقبُّل الاستجابة، وامتصاص خلاصة الحياة مِن أرضٍ ما، وما أكثر الأوقات التي تعرضتُ فيها لأعراض هذا الموت وأنا بصحبته في الأنحاء البعيدة. الوضع السياسي لن يحمله مجددًا ليكون ممثلنا في الغرب، بعد أنْ نجا مِن حادثة الجواز بدعم غير محدود مِن عاطف وشركائه، سيظلُّ يحمد الله ويقبل بأية دولة في العالم المنهوب.

Scanned by CamScanner

ظَلَّتِ الأخبار تأتي عن كارمن متقطعة وكاذبة، في البدء قيل لنا إنَّها في ليبيا، ثم العراق، وأخيرًا ثبتَ أنَّها في سوريا. كُلَّمَا انهزم المقاتلون المتطرفون، انجلتْ لنا حقائقٌ عنها. عِشْتُ في قلق عليها، هل ستحمل البندقية، سيقومون باغتصابها تِبَاعًا، ستقبل بجهاد المناكحة؟! أحيانًا أتخيلها جارية سوداء في عرش خليفة كثّ اللحية، الجماجم تحت سريره كأنَّها أباريق متناثرة. وأحيانًا أتخيلها جزءًا مِن تاريخ طويل يجري كنهرٍ مِن الدم، هي قطرة واحدة تلتحم بدماء الموتى بالمنجنيق، الطاعون، والجوع. غالبًا عليَّ أنْ أتناسى، وأنْ أبدو متماسكة أمام الناس، أفعل ذلك لأملأ قلبي بيقين عودتها.

إحدى الصحفيات تعد تحقيقًا عن الفتيات اللائي خرجن مُتَطَرِفَات، كانتْ تشعرني أنَّها أيقونة لما تمنيتُ أنْ تكون عليه ابنتي، أسئلتها تمثلني، وتنقل ما أودُّ فهمه ببساطة. تطورتْ علاقتي العابرة بها إلى إحساس راسخ بالمحبة، لم تعد نجلاء مجرد صحفية تطارد قضية ما، صارتْ ملاذي في البلاد. رحلتْ مِن سكنها مع الطالبات وجاورتْ غرفتي. في بيتي بدأتُ أستعيد كوني أمًا حنونة، ذهبتُ معها لأهلها في القضارف ذات عيد. الحياة أخذتْ مِنِّي ابنة بطني ومَنَحَتْنِي ابنتها. بفضلها عدتُ لعملي، ونضالي مرَّةً أخيرة، لن أغادرهما مهما كلفتْنِي الحياة.

بدأ التذمر مِن حياة الضنك يطفو بين الناس، لم يعد حديث التغيير همسًا خافتًا، الهتاف في الشوارع بدأتْ بوادره تنمو، ينمو يقيني أنَّ خيرًا سَيُخْرِج نبتَهُ، يحرق نفايات الفشل التي خلفتها أَزْمِنَة سابقة. أخشى موت الآلاف تحت سنابك القابضين على الرقاب، وأخشى أنْ

Scanned by CamScanner

تظل الملايين شبحًا سقيمًا، إيجاد حل أمرًا صعبًا وقد يُفْقَد الأمل، فقدانه هو ما قذف بكارمن إلى ذوي العمائم رغبة في الأمل الأخروي، لو أنَّها صبرتْ لسنة أو سنوات؛ لرأتْ براعم الأمل تنمو في حياتنا.
قلت لنجلاء:

- لا تخرجي اليوم في احتجاجات الصحفيين.
- يا فردة ما تخافي.. عمر الشقي بقي.
- طيب.. اتصلي بي بعد نهاية برنامجك.
- حاضر ماما.

خرجتْ مِن بين أضلعي، هتفتْ بين الناس، ثم عادتْ يكسوها الغبار؛ إذن كُلّ الأحلام مُمْكِنَة التحقق. مِن حولنا ينجح آخرون، يخفق غيرهم، يلتهب برميل البارود الكوني، ثمة انفجار قادم لن يستثني أحدًا، يحدث كل هذا وثلاثة مِن أهلي ينتهون إلى خواتيم متباينة، أبي ينتظر مولودًا في أخريات أيَّامه، يعالج الاحتضار بصبر، ويراوغ الموت بطرائق مُجَرَّبة. أخي يقاتل مع جماعته لاستبقاء ثروته ومجده الشخصي، يحمل في الخفاء ما خفَّ حمله وعزَّ على نفسه إلى أرضٍ بعيدة، زوجي يتكلس في وظيفته، ينسى مشروعه الكتابي، يحلم بحياة بعيدًا عن قارّتِه. في داخلي انفجار آخر، مزيج مِن وخزَات الضمير المؤلمة، اشتياق مُمِيت لكارمن، محاولة إنتاجها على هيئة مختلفة في حَيِّز كل فتاة تقابلني في الحياة.

Scanned by CamScanner

حرائق ما قبل الرحيل

حَبَّاتُ مسبحته تتساقط مِن بين إصبعيه، تعودُ مرَّةً أخرى لبطن يده. يهمهم بذكر الله، إلى جواره تهبط ملائكة الموت بهدوء، تدرك بِدِقَّة ما يتوجّب عليها فعله لحظة سقوط ورقته مِن شجرة الحياة. الملائكة سُمر وغُبش بلون الأرض التي يصلي عليها، لم تُبصرهم رُقيّة عندما وضعتْ أمامه كوب الشاي. رأتْ ظلالاً على النافذة، أحسَّتْ برطوبة تسرى في أطرافها، بالحوش أضيق مِمَّا كان. عندما رفع الكوب بيده فتح عينيه المغمضتين على تسبيح الصباح؛ رأى الجمال يَشِعُّ في الأرض، أنوار تستطع في جباه بعيدة، الأنفاس الحلوة تخالط النسيم. ابتسم كبرقٍ طويل المدى، ثم قال لها:

- خَبِّريني عن البنية.

- ما في جديد عنها يا جدها.. ربنا يلطف.

- راجعة.. راجعة؛ امضغي الصبر.

أوصاها أنْ ترأف بها عندما تعود، ألا تقسو عليها، تضمها بحنو مهما فعلتْ. بدأتْ رُقيّة تلحظ في أبيها نورًا وشفافيةً، ومع وصاياه شعرتْ بقلق عليه. عليها أنْ تخرج مع الناس في الشارع بعد الظهيرة؛ لتحتجَ وتهتف ملء حنجرتها. وعدتْ نجلاء بمقابلتها في موكب يوم المرأة، ولكن القلق تسلل إلى قلبها، ربما يأتي ما يمنعها عن الخروج.

ذهبتْ تسقي شجيرات الليمون، بعدها ترتب ملابس فريد المبعثرة بين دولابه والسرير. تركتْ الصرماتي وحيدًا بين الملائكة، لا أحد يعلم

Scanned by CamScanner

ما تم بينهم مِن حوار، الراجح أنَّه طلب فسحةً مِن الوقت لحين استعادة بعض الذكريات، وحسب القياس الملائكي لزمن سقوط ورقته عن الشجرة، أخبروه أنَّ الأمر ليس بيدهم، ولكن هنالك وقتًا حتى يتحتم بدء اصطحابه معهم. أزمع ألَّا ينهض مِن مصلاته فيما تبقَّى له مِن عُمر.

عادتْ رُقيّة بقلقها لتلقي نظرةً عليه، ابتسم لها، ثم سألها عن علوية، أخبرتْهُ أنَّها لم تزل نائمة، تَعَبُ الحِمْلِ يبقيها على السرير. عندما تفوَّهتْ بكلمة الحمل ابتسم مرة أخرى.

- إنْ جابت ولد سمّوه حسنين، وكان بنية سموها الغالية.

- تعيش وتسمّيهم يا أبونا.

ردَّتْ رُقيّة، وهي تخفي دمعها بيديها، هرولتْ للخارج. الملائكة يشيرون له بوجود مُتَّسَع للتذكر يصغر قليلاً قليلاً، هو يعلم أنَّه سيظل يسمع ويرى لفترة أخرى حتى بعد اصطحابه في رحلة اللاعودة. شريط يمر أمام عينيه، يعرض أُناسًا بثياب قديمة، حيوانات باعها، اشتراها.. وذبحها، نساء على فُرُشٍ بلدية، وأخريات على الطريق، أطفال يلعبون، وأطفال يتشاجرون في اقتسام طعام، حشود تصلي لله، وحشود تهتف بعبارات، حشود تحملها الآلات بعيدًا، رأي بتول على صهوة برش، بخيتة على مقعد خشبي، حسب الله بملابس مبتلة، علوية تحمل طفله وتغطي وجهها بثوب أبيض. الورقة سقطتْ للتو؛ فأغمض عينيه مع حركتها في الفضاء الواسع، رآها تحلّق بعيدًا، يحاول أنْ يصل إلى المكان الذي ستستقر عليه، ولكنها تدور، ولا تهبط في مُسْتَقَرٍّ لها.

Scanned by CamScanner

(1)

الحرائقُ اشتعلتْ في مباني الحكومة، الحشود تضع المتاريس على الشوارع.. كُلُّ البُلَهاء خرجوا يهتفون ضد الرئيس، ضدي، وضدنا. تناسوا أنَّ الدنيا لم تكن يومًا مكانًا مثاليًّا لأحد، تناسوا أيَّام فقرهم المدقع، وتعاملوا مع أنفسهم وكأنَّهم شعب بلاد مُرفَّهة.

أيُّها الأوباش: اسمعوا؛ وارعوا.. أنتم أبناء الفقر، والمسغبة القدرية. أنتم "سلالة الغُبُش كابر عن كابر. أنتم مِن طينة الغبار المخلوط بعرق الفقراء، أنتم بلا تاريخ مَع مُتَعِ الحياةِ ولذّتها، بلا تاريخ مع الفرح والضحك، كلكم لآدم السوداني، وهو أب المعاناة والإخفاق؛ فلماذا تحسدون ثُلَّة خرجتْ مِن بينكم تبني لها بيتًا مختلفًا؟ لماذا تحسدون الأثرياء على حياتهم أيها المُنْدسّون؟ أيَّما جرذ منكم يتحدى إرادة السماء؛ فبطن الأرض أحقُّ به مِن ظاهرها، فوالله إنَّ جحوركم أدفأ لكم مِن مقارعتنا". كلمات تعتمل في قلبي، يخرج بها لساني أحيانًا، خاصة عندما تهتزُّ الأرض تحت إطارات سيارتي، أو يزكم أنفي دخان الحريق، وارتداد الغازات المسيلة للدموع، لكنها لا تجدي، كل يوم تَتَّسعُ حلقة النيران الشريرة، طالتْ الرئيس نفسه. فشلت محاولاته لإصلاح ما أفسده بنفسه، تَحَوَّل إلى فأر مَرَّغَتْهُ قِطَّةٌ شرسة، لا هي أكلتْهُ ولا تركتْهُ يهرب مِن بين فكيها، القطة لَبِستْ الرئيس مِخْلَبًا، وصارتْ تُرْعِبُ به مَنْ تشاء. قلتُ له في لقاءٍ خاص:

- سعادتك.. ما الحل؟

Scanned by CamScanner

- اصبروا.. القادم أحلى هههههه.

ضَحِكَ حتى بانتْ تجاعيدُ سقفِ فمه، ابتسمتُ من بابِ إحسان الظن به، وأنا أعلم أنَّه يضمر قرارات شريرة، سيهبط بها علينا فجأة، ويطالبنا بأنْ نبصم عليها بالعشرة المُحْتَرفين، كالعادة سنبصم! وددتُ معرفتها قبل صدورها؛ فقلتُ له:

- ليتنا معك دومًا يا ريس.

- ولا واحد منكم.. كفاية يا بروف.

إذن سيذهب وحده، ناجيًا بزعامته، يتركنا في منتصف المَقْتَلَةِ القادمة، وعلى كُلِّ فرد مِن حاشيته أنْ يتدبر أمره. رغم خطورة ما سيحدثُ بعيدًا عن كنفه إلا أنَّني كنتُ سعيدًا باستدراجه لمعرفة خط سير المعركة، على الأقل سأعرفُ كيف أدير وقائع الأحداث لمصلحتي.

مات أبي قبل أنْ يرى مولوده، كما تَوَقَّعْتُ تمامًا.. الحياة لن تمنحه فرصة للسعادة في الوقت بدل الضائع، عليها أنْ تأخذه، أو تأخذ الطفل القادم، الحياةُ أذكى مِن أنْ يتحاذق عليها مُسِنٌّ خَرِف. عندما أخبرتْني رُقيّة بموتِهِ تَنَبَّهْتُ سريعًا إلى الفرصة الذهبية التِي يمنحها لي موته، سيفتح لي الباب واسعًا في التَّقَرُّب إلى الفقراء، ومد حبال المودة، وآصرة القربى معهم، أحتاج الظهور هذه الأيام في مجتمعهم، تناول طعامهم المعبأ بالميكروبات، وأخذ أكثر مِن صورة مع أكثرهم قذارة. سأجعل مِن عزاء أبي، بل مِن فعالية موته لجنة تخصُّني للحقيقة والمصالحة، تلك الفرية التي يتسلقها السياسيون لتثبيت حكمهم، يمكنني أنْ أفعلها الآن، سأزعم أنَّ لقب الصرماتي أحبّ إلى نفسي مِن كلمة بروف! وأنَّني ظللتُ طيلة حياتي أكِنُّ الاحترام لأصحاب المهن

Scanned by CamScanner

اليدوية مِن الحَلَّاق وحتى الجرّاح. سأتحدث بحنين لأرضي في وادي المَعَّاز، قطعًا لن أنسى إظهار الحزن الفادح على أبي! ومع بعثرة النقود في الجيوب ستمضي الأمور، وأنحني حتى يغور الغوغاء.

قلتُ لرُقيّة، وأنا أتشنج بالبكاء، أُسْقِطُ التليفون مِن يدي، ثم أرفعه.

- ما تدفنوه.. انتظروني، أنا في الطريق.

وهي تبكي بعلو صوتها:

- أكيد.. ما عنده غيرك، وهو أبوك.

في المقبرة قمتُ بدور الابن البار، نزلتُ إلى المطمورة، ووسَّدته الباردة. انتهتْ أيام العزاء ولم يظهر الرئيس، كان يعد مخططه لإقالة حكومتنا، ومسح أوزاره في وجوهنا، فعلها بدقة بالغة، يجيد توجيه الطعنات لحلفائه، يجيد إبقاءهم في خانة الحياد، تحسُّبًا لما قد يلحقونه به مِن أذى، وعلى احتمال أنَّ يحتاجهم مرَّة أخرى في ظل إرباكه المستمر. وجدتُ نفسي في الشارع، بلا سند مِن حكومة أو حزب، خلفي مؤسسات وأموال اكتنزتُها بكدحي وعرقي، لن أدعها تذهب أدراج التقلبات، وظروف الرئيس وأسرته الحاكمة، سأقاتل لآخر نفس مِن عمري.

ما فتَّ في عزيمتي هو مشاهدتي هروب الجميع. أوَّل الهاربين هو سمسار الدجاج، أخذ زوجته وهاجر إلى كوريا، يدّعي أنَّه سيُصدِّر السيارات مِن هناك، وكخدمة ثانوية سيرسل لِي المعدّات الطبية التي أتاجر فيها مِن هناك. إذا هدد الغرق السفينة؛ سيبدأ الجميع صنع قواربهم مِن خشبها، حتى أنتِ يا زوجة لوط! اندهشتُ وأنا أراها تحزم حقائبها وتصطحب بناتها معها نحو الجزر البريطانية، بعد أنْ

Scanned by CamScanner

سحبن الأرصدة التي أودعتها في البنوك بأسمائهن تحوّطًا مِن تقلبات السياسة ومجازفات الرئيس. بقيتُ وحدي مع الخادمة الأجنبية، امتدَّ المرض إلى جسدي، لم أعد أهتم بخصرها عندما تتمطى لرفع الستارة. علمَّتُها حقني بالأنسولين وحوَّلْتُها إلى ممرضة لي. الأطباء نصحوني بزرع بنكرياس في دولة بعيدة، قلبي يرفض التمسُّك بالحياة وجسدي يؤلمني، ما أستطيع فعله بلا حياء هو الاتصال برُقيّة لتأتي وتتفقدني. أبحثُ في رأسي عن شيءٍ جميل قدَّمتُه لأبي في حياته؛ فلا أجده.. أغرق في خواءٍ كئيب.

Scanned by CamScanner

(2)

انهارتْ ممالك النُّخب على رؤوسهم، أبي في عليائه يبتسم هازئًا ويُثَبِّتُ قلبي! بَذَل عاطف جهده لتعود ابنتي، شبكة علاقاته مع رجال الدولة خدمته، وربما له صلات خفيّة مع المنظومة التكفيرية. أتصوَّرُ أنَّ له مصلحة في استرجاع البنات والأولاد مِن هناك، له مصلحة في تمجيد والده بعد وفاته، أعلم كل ذلك، ولو كان ثَمَّة أطباء على الأرض يعالجون اختلالاته السلوكية؛ لحملته إليهم. لم يخبرني بما حدث لكارمن، يَرْمِي لي بضع جُمل يتوقع منها أنَّنِي سأتفهّم، يقول لي إنَّ الفتيات هناك يتم إجبارهن على الجنس، وخدمة المجاهدين، ولا يمكن أنْ تظلّ هنالك بلا زوج. أدرك كُلَّ هذا مِن خلال المعلومات المبثوثة على شبكة الإنترنت.

- ما الجديد يا عاطف.. وتَّرتني جدًا.

- كارمن تزوجت بريطاني مِن أصل باكستاني.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- وعندها منه طفلة.

إذن ستهبط الطائرة حاملةً معها بنتين لي، أحدهما صاغتها حياتنا المدنية البائسة، والأخرى سليلة حروبنا العبثية، سأحمل على وجهي ملامح الفشل والموت معًا. لا يهمني ما سيقوله الناس، ولا إذا ما كانتْ حفيدتي ابنة فِرَاش زوجية صحيح أم ابنة سفاح المجاهدين، ما حدث لكارمن لابدَّ أنَّه كان أمرًا مُرَوِّعًا مِن كل النواحي! ما سيحدث لها هنا في قادم الحياة سيكون عصيبًا عليها.

Scanned by CamScanner

بينما ذهب رجال الدولة المترنحة لاستقبال الفتيات في المطار، والفرح بعودتهن حبالى وأمهات؛ رفضتُ أنْ أذهب لأحضر الاحتفاء بنصرهم المهزوم. لم أستطع إيقاف العبث بحياة ابنتي ورفيقاتها، فريد ذهب ليشهد منافع تَخُصُّه، ليلقي رجالات يعرف أنَّهم مهمين في مسيرته المهنية. أوصيتُ نجلاء أنْ تنقل لي المشهد أونلاين، ستذهب لأنَّ الأمر يهمها كصحفية، ولتستقبل ابنتي إنابة عني. تعللتُ بأنَّني سأعتني بأخي حسنين، منذ أنْ غادرتنا أمه ولا أحد له في العالم غيري.

لم تكن علوية تنوي مغادرة المنزل، في أعماقها تحفظ وفاءً كبيرًا للعجوز الذي أهداها مولودًا وهي على مشارف الانقطاع. الفوضى لم تتركها وشأنها، في نهار خريفي طَرَق الباب رجل مُلتحٍ، عليه مسحة حزن وبقايا جنون. قال إنَّه زوج علوية، وإنَّه لم يعد شهيدًا، أقصد أنَّه لم يكن في يوم مِن الأيَّام ذلك الشهيد! سَرَد قصته التي تشبه خيال واقعنا وآثامه، وقع في الأسر بعد معركة شرسة خاضها المجاهدون الوطنيون ضِدَّ غير المجاهدين مِن بَنِي جلدتهم. ظلَّ في الأسر لسنوات وحكومته لا تعلم عنه شيئًا. خرج زملاؤه على الملأ يتحدثون عن جسارته، وعن المسك الذي فاح مِن دمه. قال أحدهم إنَّه شاهد صقرًا ينهض مِن بين جثث القتلى، يُحَلِّق في السماء، أَمْعَنَ النظر فيه كانتْ عينا الصقر هما عينا الشهيد المبارك. ها هو يعود للحياة مُحَقِّقًا الكرامة الكبرى، يعود بمسحة الحزن والجنون، يسأل عن زوجة كانتْ له في حالة سلمه الطارئة.

حمدتُ الله أنَّ أبي قد انتقل قبل أنْ يشهد عودة زوج زوجته، استطاع أبي أنْ يحتملَ، ويتفَهَّمَ عمليات تبديل العملة الورقية، وأسماءها

Scanned by CamScanner

منذ الإنجليز مرورًا بالحكومات المحلية المسماة وطنية، احتمل حرب الدولة على النَّاسِ المُسَمَّاة أهلية، فقد فيها حسنين وآخرين مِن دونه هو يذكرهم. كيف له أنْ يتحمل منازعته في زوجته، إنها ليستْ قطعة أرض، ولا شجرة يجلس تحتها واضعًا عِدَّة عمله والأحذية القديمة. لم يكن بمقدور علوية أنْ تقاوم عودتها إلى الزوج العائد، على الأقل ستجد ظِلَّ رجلٍ، في نظرها أنْ لا امرأة سعيدة إلَّا تحت هذا الظل المجيد. رفض زوجها استصحاب ابنها لحياتهما، كاد أنْ يُسَمِّيه ابن حرام. يُحَمِّل علوية مسؤولية استعجالها، وعدم صبرها لحين عودته مِن الموت، متناسيًا أنَّ أسرته صرفتْ مستحقاتهم المالية كأسرة شهيد، وأنهم جنوا مِن استشهاده كشكًا في السوق الشعبي. رضختْ علوية لطلبه، تركتْ لِي أخي حسنين، تقول إنه أمانة الله والرسول!

احتضنتُ أخي وسأجعله ابني؛ لأمرٍ ما تزوّج الصرماتي!

مِن شاشة التليفون أرى ابنتي تنزل مِن عتبات الطائرة، على صدرها طفلة بعيون ضاحكة، وإلى جواري يلعب حسنين، ويبتسم لي!

الجَدُّ الصغير ينتظرك؛ فتعالي يا بنت الحروب، سأهتم بِكُمَا لحياةٍ قادمة.

Scanned by CamScanner

المحتويات

إهداء 5

بزوغ متأخر 7

انعطافاتُ ليالٍ لا تُنْسَى 23

مُرَاوداتُ الأُبُوَّةِ 39

ما لم يفهمه المسن 55

المنتمي 71

ثورات تهدأ 85

حرائق ما قبل الرحيل 99

Scanned by CamScanner

عن الكاتب

- عمر الصايم.
- السودان، مدينة كوستي، مواليد 1972.
- تخرج في كلية الآدب متخصصًا في الفلسفة واللغة العربية.

صدر له:

- "**العجكو مرة أخرى**".. قصص، نادي القصة السوداني.
- "**مارخدر**".. رواية، دار المصورات للنشر.
- "**الإيقاع الأخير لسيدنا الزغرات**".. قصص، دار المصورات للنشر.
- "**أوان وردة الأبنوس**".. قصص قصيرة جدا، دار المصورات للنشر.
- "**أزمنة الصرماتي**".. رواية، دار النسيم للنشر والتوزيع، 2019.

Scanned by CamScanner

أمي جاءت إلى الدنيا بهدوء، عاشتها كضيف يجلس على حافة الرحيل، وغادرتها في صمتٍ وعادية كأنَّها ذهبتْ لزيارة الجيران. أحيانًا كنتُ أفكر في لحظاتها الحميمة مع أبي؛ هل تصنع له الدهشة؟ تُقَدِّمها له في صحن شهي، ثُمَّ تتركه في منتصف جوعه وتهرب إلى نقطة السهو البعيدة؟ أزجرُ نفسي، وأعود لأفكر مَرَّة أخرى حين تقع عيناي على قدمي أبي المتشققتين كتربة طينية عطشى، تفوح منها رائحة القَرض، وجلود الأبقار. رحلتْ مشفوعةً بصمتي، وحزن ظاهر مشوب بفرحة مستترة؛ لتخلصها مِن متاعب زوجها الصرماتي. هذا الأب الذي يتشبثُ بالحياة كعنكبوت مراوغ، شبحه يطاردني حتى في شيخوختي المغطاة بنجاحاتي وحِفْنة مِن الأوراق العلمية.

اللوحة للفنان: عمر كمال الدين
الغلاف: هند سمير

دار النسيم
للنشر والتوزيع

Scanned by CamScanner